الدكتور محمد الجوادي

إفريقيا الساخنة

في الحرب الباردة

دار الروضة

إفريقيا الساخنة في الحرب الباردة

د. محمد الجوادي

إفريقيا الساخنة في الحرب الباردة

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

ISPN - **رادمك**
978-625-7895-89-7

للطباعة والنشر والتوزيع

هذا الكتاب

نجتهد في هذا الكتاب في محاولات باحثة بشغف عن الحق والصواب من أجل أن نرسم بأكبر قدر ممكن من الجمال الفني والمعرفي صورة لأبرز السمات الشخصية والعقلية والاجتماعية في عدد من الشخصيات السياسية التي قدر لها أن تلعب أدوارا مهمة في تاريخ إفريقيا الحبيبة إلى قلوبنا جميعا والتي لا نكف عن أن نتمنى لها ما هي أهل له من الاستقرار والازدهار والارتقاء.

نعرف أننا لا نحيط بكل أبعاد الصورة، لكننا واثقون من أننا لم نهمل شيئا معروفا من غير أن نستصفيه من أجل الحقيقة، ونعرف أن كثيرا من الزيف قد تراكم فوق صورة الشخصيات التي تناولناها لكننا اجتهدنا في الوصول إلى الجوهر بأقصى ما يمكن للاجتهاد من سعي ودرس ومراجعة للنفس وسؤال لأهل العلم ولأهل الحقيقة أيضا.

نعرف أن إفريقيا في كلمة واحدة تمثل "المطمع" لكننا نعرف أيضا أن الإفريقي الحقيقي كنز يفوق كل الكنوز الأخرى، ونعرف أن القارة السوداء تعرضت لكثير من الظلم والتجريف لكننا نرى أجيالها الحاضرة بكل ما تعانيه وقد نجت من معظم الآثار الجانبية للثورة الصناعية التي سحقت روح الإنسان، ولهذا فإن إفريقيا التي يمكن وصفها بأنها مسلوبة المواد هي نفسها إفريقيا التي يمكن الفخر بأنها غير مستلبة الروح، فلا تزال روح العزة والإباء الإفريقي ترفرف فوق رأس كل إفريقي أصيل اعتز بذاته وانتصر على لذاته وجاهد من أجل ما ينبغي الجهاد من أجله غير منخدع ولا منخلع.

وهذا الكتاب شأنه شأن معظم كتاباتي لا يفعل أكثر من أن يسكب بعض الضوء المخلص على الأحداث التى توالت، وأن يتولاها بالتحليل والتأصيل والمشابكة والمقارنة والمشكلة والمشاكلة والترتيب والتبويب والمدارسة والمراجعة والنقد.

وكلي دعاء إلى الله أن يوفقني إلى تقديم أخوة هذا الكتاب في الأيام القادمة إن شاء الله، وقد طال العهد بتجاربها المطبعية علي مكتبي أو بالأحرى علي مكاتبي هنا وهناك وهنالك، وأنا في غربتي ووحدتي ووحشتي ومرضي ومعاناتي والوقت لا يسعفني، والجهد يتضاءل، والعمر قصير، ولكن أملي في الله كبير.

والله ﷻ أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدني برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.

والله ﷻ أسأل أن يهديني سواء السبيل، والله ﷻ أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله ﷻ أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله ﷻ أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغني، والبر والتقي، والفضل والهدي، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله ﷻ أسأل أن يعينني علي نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر علي أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله ﷻ ـ وحده ـ الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الباب الأول: السودان

١
لولا الانفصال لكان الرئيس جعفر نميري رئيسا لمصر

أبدأ فأقول إن الانفصال المقصود في العنوان هو ما عُرف باسم استقلال السودان الذي تم في ١ يناير ١٩٥٦ على يد الرئيس جمال عبد الناصر نفسه..

هكذا يُمكن للقارئ أن يفهم أن العنوان يتحدث عن المعنى اللغوي الذي تقوم به أداة الشرط "لولا" وهو امتناع الحدث الثاني لوجود الحدث الأول، وهو ما يفتح الباب أمام كل ما يريده القارئ من الفهم السياسي لمعنى العنوان، والحق أن الرئيس جعفر نميري كان مع عسكرته ورغم عسكرته ومع ديكتاتوريته ورغم ديكتاتوريته يتميز بصفات نادرة تجعله يقف ندا للرؤساء المصريين المتعاقبين، بل إنه كان يتفوق عليهم في كثير من الصفات الرئاسية والسياسية على حد سواء.

روح المبادرة

كان الرئيس جعفر نميري (١٩٣٠-٢٠٠٩) يتمتع بروح المبادرة بدرجة عالية وعلى نطاق غير مسبوق، وإذا قيل إن الرئيس السادات (ومعه الرئيس عبد الناصر سرا) اشتركا في كل حركة سرية أو انقلاب قبل قيام ١٩٥٢ فإن الرئيس جعفر نميري كان أسبق منهما وأقوى وأشد بأسا ونفيرا في هذا السبيل، وكانت مشاركاته الانقلابية المتكررة واضحة وضوح الشمس، على الرغم مما هو معروف من أن الإرادة الإلهية نجته من الأثر القانوني لهذه المشاركات.

وإذا قيل أي مبادرة للرئيس جعفر نميري لم تصل إلى روح المبادرة عند الرئيس السادات في قرارات من قبيل حرب أكتوبر وطرد الخبراء السوفييت ومباردة القدس، فإننا نقول إن الرئيس السادات كان يتفوق على الرئيس جعفر نميري في الخيال، ولو أن الرئيس جعفر نميري رُزق خيال الرئيس السادات لقام بأكثر من هذه المبادرات التي تعتمد على خيال مُحلق، بينما كان الرئيس جعفر نميري يعتمد على حسابات شبه دقيقة.

كان الرئيس جعفر نميري يقوم بالدور الذي وجد غيره يتهرب منه، وقد كررت كثيرا الإشادة بموقفه من مصر عقب وفاة الرئيس عبد الناصر، ذلك أنه لما جاء لحضور العزاء ووجد التيارات السرية تذكي أفكارا حمقاء من قبيل فكرة رئاسة جماعية وفكرة

رئاسة مؤقتة وما إلى هذه التوجهات من محصلة السفسطة السياسية والتربص الجماعي والتحرش الجمعي فإنه تبرع وأعلن بكل وضوح أنه باق في مصر إلى أن تنتخب مصر رئيسا دائما.. وقد فعل هذا... بل إنه وهذا وجه من العظمة، لم يلتف إليه المصريون بحكم شوفونيتهم المفرطة، كرره أيضا عند وفاة الرئيس السادات.

أيلول الأسود

وربما أنك لا تجد الآن زعيما أو رئيسا يفعل مثل هذا الدور لكنك لا تتعجب من أن يقوم الرئيس جعفر نميري بمثل هذا الدور الشجاع.

وهو قبل هذا وذاك الذي تولى، دون غيره، رئاسة لجنة القمة العربية التي ذهبت إلى عمان عاصمة الأردن لإخراج ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطيني بصحبتها في ذروة أحداث أيلول الأسود ١٩٧٠، وهو الذي اصطحب الزعيم ياسر عرفات في طائرته إلى القاهرة، وقد تصدى الرئيس جعفر نميري لهذا الدور، بينما لم يكن عهده بالرئاسة السودانية قد وصل إلى أكثر من سنة وأربعة أشهر بينما كان هناك رؤساء أقدم منه وأكثر صلة بالعسكرية وبمنابع القوة (من طراز الرئيس هواري بومدين على سبيل المثال) لكن روح المبادرة والمسئولية عند الرئيس جعفر نميري كانت تُمكنه كما قلنا لا من رئاسة السودان فحسب ولكن من رئاسة وادي النيل كله لو ظلت مصر والسودان كما كانتا كيانا واحدا.

وقد تشكل وفد القمة العربية إلى الأردن برئاسته وعضوية الباهي الأدغم رئيس وزراء تونس والشيخ سعد العبد الله الصباح وزير الدفاع الكويتي والفريق محمد أحمد صادق رئيس الأركان المصري.

السياسة والميكيافيلية

كان الرئيس جعفر نميري بكل تأكيد أقل معرفة بالسياسة وبعلم السياسة وبفن السياسة من زعماء كمحمد أحمد المحجوب وإسماعيل الأزهري والصادق المهدي وغيرهم من زعماء السودان لكنه كان أكثر منهم اقتناعا وتطبيقا للنظريات الميكيافيلية وللنظريات غير الميكيافيلية، ولهذا فإنه استطاع أن يحكم بما يقترب من

السلاسة طيلة المدة التي حكم فيها السودان (١٩٦٩ـ ١٩٨٥).

من زاوية أخرى فقد كان الرئيس جعفر نميري بكل تأكيد يُجيد اختيار الأشخاص وليس أدل على هذا من أنه هو الذي اختار سوار الذهب الذي قاد الانقلاب عليه! نعم أنا أعني ما أقول، فاصبر لتسمع أو لتقرأ بقية الجملة وهي أن أفضل معاملة لقيها رئيس عربي تعرض للانقلاب كانت هي المعاملة التي لقيها الرئيس جعفر نميري الذي لم يحبس ولم يُعدم ولم يُعذب ولم يُهن وإنما عاش معززا مكرما في مصر في قصر منيف، وهو ما لم يُتح لأي رئيس عربي أو ملك عربي قام ضده انقلاب..

السبب في هذا هو نُبل هذا الرجل المسمى سوار الذهب والموصوف بأنه سوار الذهب! فإذا كان الذي اختار سوار الذهب لهذا المنصب الذي يتوقع من شاغله (على الدوام) أن يكون هو قائد الانقلاب على من يختاره فإنك لا تستطيع إلا أن تثني على ذكاء الرئيس جعفر نميري ودقة اختياره لهذا الرجل. أقول هذا الذي لا يتعارض مع ما رددته في حكاوي الجوادي في الجزيرة مباشر من رواية طريفة تقول إن الرئيس جعفر نميري استبطأ زوجته وهما يتجهزان للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكانت السيدة زوجته قلقة بعد أن وصلا إلى الطائرة فسألها يبدو أننا نسينا شيئا أقلقك نسيانه فقالت: نعم سوار الذهب فقال: لا تقلقي فلن يستولي عليه أحد وسيكون في الحفظ والصون عندما نعود.

تقاعده في مصر

لم يعد الرئيس جعفر نميري إلى السودان لأن سوار الذهب قام بالانقلاب وتم ترتيب إقامة الرئيس جعفر نميري في مصر في نفس القصر الذي كان قد أقام فيه عبد الله السلال وهو قصر مملوك للملك فيصل خصصه الرئيس عبد الناصر لإقامة المشير السلال نكاية في الملك فيصل وفي حليفه الرئيس السلال أيضا بعدما تخلى عنه في اليمن.

نشأة ونشاط انقلابي

ولد الرئيس جعفر نميري ١٩٣٠ وبعد تعليم مدني عادي في مدارس أم درمان وود

مدني وحنتوب تقدم للكلية الحربية، فيما أعلن هو عن سببه فيما بعد بأنه كان سببا ماديا محضا، ودرس في الكلية الحربية ما بين ١٩٥٠ و١٩٥٢ وبعد أن تقدم في الرتب والقيادة أتيحت له دراسة عسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦٦ في أركنساس وهي الولاية التي كان الرئيس كلنتون حاكما لها قبل انتخابه للرئاسة.

بعد ثلاث سنوات من تخرجه اشترك الرئيس جعفر نميري في محاولة انقلابية ١٩٥٥ ونجا من الاتهام وسجل المحققون أنهم اكتشفوا أن الأمر لم يكن إلا وشاية، ثم اشترك في محاولة انقلاب أخرى قادها خالد الكد، ولم يثبت عليه ما يحرجه. بالطبع فإن الذي يُعلن عن اكتشاف اسمه في انقلابين يكون قد اشترك في أضعافها مما لم يعلن عنه أو مما لم يصل إلى مراحله النهائية.

لما قام الرئيس جعفر نميري بانقلابه كانت صورة الدولة الجديدة مرسومة في ذهنه باقتدار فقد رقى نفسه من عقيد إلى لواء وترأس مجلس قيادة الثورة، واختار لرياسة الوزارة أبوبكر عوض الله رئيس القضاء السابق الذي كان قد استقال من منصبه في عام ١٩٦٤ احتجاجا على قرار حل الحزب الشيوعي السوداني.

نميري واليسار

وهكذا كان إعلان الرئيس جعفر نميري عن يساريته واضحا وإن كان الخبراء بالسلوك العسكري يعرفون ما لا يعرفه الساسة من أن الأمر لا يعدو ستارا لعلاقة أخرى أوثق بالقوة العالمية الأولى وهي الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما ظهر بوضوح حين حاول الشيوعيون الانقلاب على الرئيس جعفر نميري بعد فترة بمعونة من موسكو وهو ما لم يكن ليحدث إلا باكتشافهم أن نوايا غدرهم ظهرت وأنهم قد يفقدون السلطة عن قريب، مهما كانت سلطة نميري قد حفلت في بدايتها بصورته اليسارية وباليساريين والشيوعيين والقوميين العرب.. والواقع الذي تعلمناه من التاريخ أن الشيوعيين جبلوا على أنهم لا يحبذون الاستمرار في منح الثقة لغيرهم إذا ما استطاعوا الاستحواذ لأنفسهم عليها، وهكذا فإنهم بعد مرور عامين على حكم الرئيس جعفر نميري قاموا بالانقلاب الشيوعي الذي كانت نتيجته أن تثبت الرئيس جعفر نميري وترسخت قدماه بدلا من أن يطير.

يُعرف هذا الانقلاب في التاريخ باسم قائده فيقال عنه إنه انقلاب هاشم العطا (١٩٣٦ ـ ١٩٧١) الذي كان عضوا في مجلس قيادة الثورة منذ ٢٥ مايو ١٩٦٩ وحتى ١٦ نوفمبر ١٩٧٠ وكان برتبة رائد حين قام الرئيس جعفر نميري بانقلابه، وقد نفذ انقلابه في ١٩ يوليو ونجح في البداية لكن هذا الانقلاب انتهى في ٢٣ يوليو وكان الفضل في إنهائه للعقيد معمر القذافي وقد عقد الرئيس جعفر نميري للمتورطين في هذا الانقلاب محاكمة رأسها بنفسه وسُميت بمحاكمة الشجرة وحُكم بالإعدام رميا بالرصاص على جميع قادة الانقلاب، وممن أُعدموا في هذا الانقلاب زعيم الحزب الشيوعي عبد الخالق المحجوب (١٩٢٧ ـ ١٩٧١) والشفيع أحمد الشيخ، وجوزيف قرنق، والمقدم بابكر النور والرائد فاروق حمد الله.

نميري والمهدية

فيما قبل هذا كانت للرئيس جعفر نميري ثقة بالغة في قدرته على الحسم جعلته لا يؤجل مواجهة زعيم الأنصار (أي طائفة المهدية) وهو الإمام الهادي، وكان قد تحصن في معقله في جزيرة أبا جنوب الخرطوم، لكن الرئيس جعفر نميري شأنه شأن العسكريين العرب لم يجد حرجا في أن يقتحم الجزيرة، وأن يقوم بمجزرة طالت المئات ومنهم الإمام الهادي نفسه الذي لاحقه الجنود وقتلوه على الحدود مع إثيوبيا، وقد تكرر كثيرا القول بأن مصر قدمت للرئيس جعفر نميري مساعدات عسكرية في اقتحام الجزيرة شملت فيما قيل استخدام الطيران المصري في الهجوم على الجزيرة (١٩٧٠) وهو ما نفته رموز مصر الرسمية أكثر من مرة لكن الطريف في أمر ما يتردد عن هذه الواقعة من أقاويل أنها تمثل الواقعة الوحيدة في التاريخ المصري التي اجتمع في مسرحها وعلى مسرحها الرؤساء الثلاثة عبد الناصر والسادات ومبارك.

واجه الرئيس جعفر نميري انقلابات صغيرة أخرى مثل انقلاب حسن حسين في ١٩٧٥، وما سماه هو ومشايعوه هجوم المرتزقة في ١٩٧٦ والذي جاء بقوات تم تدريبها في ليبيا وقادها العقيد محمد نور سعد وكاد ينجح لكن الرئيس جعفر نميري أبادهم، على أن المعارضة السودانية تسمي هذا الهجوم بعزوة يوليو المباركة، إذ أن فصائل المعارضة حصلت بعدها على كثير من المكاسب من الرئيس جعفر نميري منها إنهاء الفُرقة

والتمييز بين أبناء الوطن في دخول الكليات الحربية وهو التمييز الذي تكرس منذ اختراع العسكريين العرب لتفعيل مبدأ الولاء المسبق والخلو من أي لمحة من لمحات التدين ضمن مسوغات القبول في الكليات الحربية.

نميري وقوانين الشريعة

قُرب نهاية عهد الرئيس جعفر نميري اجتمع الجمهوريون بقيادة محمود طه على مهاجمته واستخدموا الكتّابة أداة لهجومهم، فأصدروا كتابا عن "الهوس الديني" وما كان من الرئيس جعفر نميري إلا أن رد عليهم بأن جاهر بما أسماه " قوانين الشريعة الإسلامية " المعروفة بقوانين سبتمبر ١٩٨٣، واعتقل الرئيس جعفر نميري محمود طه وقدمه للمحاكمة في ٧ يناير ١٩٨٥ فأعلن عدم تعاونه مع المحكمة في كلمة مشهورة وصدر الحكم بإعدامهم بتهمة إثارة الكراهية ضد الدولة، ثم حولت محكمة أخرى التهمة إلى تهمة ردة وأيد الرئيس الحكم ونُفذ في يناير ١٩٨٥.

وبعد شهرين وفي الأسبوع الأخير من مارس ١٩٨٥ سافر الرئيس جعفر نميري في رحلة علاج إلى واشنطن، فتكاثرت الجماهير المعارضة في الشوارع وحظيت بدعم من النقابات والأحزاب والاتحادات فأعلن الفريق سوار الذهب وزير الدفاع انحياز القوات المسلحة للشعب، ونصح الرئيس جعفر نميري بتغيير وجهته في العودة لتكون إلى القاهرة فأقام فيها ١٥ عاما من ١٩٨٥ حتى ٢٠٠٠ حيث عاد إلى السودان وأعلن عن تشكيل حزب سياسي جديد باسم تحالف قوى الشعب العاملة، لكن هذا الحزب لم يُحقق شيئا ذا بال في السياسة لا داخليا ولا خارجيا.

مكانته بين العسكريين السياسيين

كان الرئيس جعفر نميري ثاني الرؤساء العسكريين الأربعة للسودان بعد الفريق عبود والأزهري وقبل المشيرين سوار الذهب وعمر البشير، وهو بين هؤلاء العسكريين الأربعة الذين وصلوا للرئاسة يُعتبر ثانيهم شراسة بعد المشير البشير، كما أنه ثانيهم طول بقاء في المنصب بعد البشير أيضا.

أما علاقة الرئيس جعفر نميري بالطوائف السياسية المختلفة فكانت نموذجا للدينامية المطلقة، ولم تكن كما يقول أعداؤه نموذجا لحب التثعلب، ذلك أن الرئيس

جعفر نميري لم يرفض يدا مدت له من دون مصافحة، كما أنه لم يترك يدا مُدت عليه من دون عقاب، كان يبدو في بعض الأحيان ناصري السلوك لكنه كان ذا قدرة أكبر على استيعاب التفصيلات والإحاطة بالتكتيك وممارسته، ولا شك في أن قُدراته على معالجة الصعوبات الجمة التي وجدها أو أوجدها هو نفسه تفوق أي قدرة أخرى. ويكفي على سبيل المثال أن نُشير إلى أنه واجه تمردا قضائيا عنيفا لم تشهده أي دولة أخرى (فبراير ١٩٨٠) ثم صيف ١٩٨٣، ولم يكن الرئيس جعفر نميري ليسلم بسهولة.

مشكلة الجنوب

ومن الإنصاف (والحق أيضا) أن نذكر أن الرئيس جعفر نميري جرب كل الوسائل لحل مشكلة الجنوب دون أن يمضي في أي وسيلة منها إلى الحد الكفيل بالنجاح وهو معذور في هذا فإن الأمريكيين لم يكفوا لحظة واحدة عن العبث الدؤوب بمستقبل جنوب السودان لا حبا في الجنوبيين ولا في المسيحية وإنما في محاولة لإثبات قدرتهم الإعجازية على التبشير والتنصير، ومع أن هذا الهدف يتفق بقدر ضئيل مع الإمبريالية الأمريكية فإنه لا يتسق مع روح العصر الذي تعيشه أمريكا.

يمكن لنا أن نقرر بلا مبالغة أن التمزق الذي يُعاني منه جنوب السودان أمريكيُ المنشأ وأمريكي الهدف وأمريكي الهوى دون أن يُفيد أمريكا بأي شيء إلا في التحريض على الحكومات العربية في شمال السودان ثم على الحكومات الجنوبية في جوبا نفسها. ومن طرائف اختيارات الرئيس جعفر نميري أنه هو الذي اختار جون قرنق (١٩٤٥ ـ ٢٠٠٥) ليذهب إلى جنوب السودان ليكف الفرقة المتمردة عن تمردها، فلما وصل قرنق إلى جنوب السودان ذهب إلى الجنود في الغابة وانضم لهم وأنشأ الجيش الشعبي لتحرير السودان وأنشأ له جناحا مدنيا هو الحركة الشعبية لتحرير السودان.

محاسنه

أما إيجابيات الرئيس جعفر نميري المهمة في السياسة الداخلية فتتمثل في ثلاثة أمور:

١ ـ فقد كان مع الصحوة الفكرية قلبا وقالبا، بما في ذلك الصحوة الإسلامية والاقتصادية والعلمية على حد سواء، وكان بحكم حبه للثقافة الذي أوصله إلى

التردد على صالون الأستاذ العقاد يُعلي من قيمة الثقافة وفائدتها لنظام مثل نظامه، ولم يكن كبقية العسكريين الذين يتحسسون مسدساتهم حين يسمعون كلمة الثقافة.

٢ ـ كان مع النهضة التعليمية بلا حدود وقد أنجز فيها معدلات عُليا من الجامعات والمعاهد والمدارس.

٣ ـ كان مع نشاط المجتمع المدني الإسلامي (دون تمذهب) بكل أطيافه من الصوفية إلى الإخوان المسلمين إلى الجماعات القديمة والجديدة، وكان يحترم علماء الدين ويُقدرهم، ويحترم الدين والمتدينين ويُعول على القيم الأخلاقية في المجتمع، ومع ما قد يؤخذ عليه من ممارسات شخصية توقف عنها مع الزمن فإنه كان ملتزما بالرقي الروحي كما كان مستقيم الوجدان بلا جدال.

علاقاته الخارجية

وعلى مستوى السياسة الخارجية كانت علاقات الرئيس جعفر نميري الإفريقية متزنة خالية من المشكلات حتى مع اثيوبيا التي كانت تشجع التمرد في جنوب السودان وربما كانت أكثر معاناته من تقلبات القذافي. أما علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية فقد مضت طوال سنوات حكمه بلا استفزاز من أي من الطرفين، وحين أرادت أمريكا أن تنقل يهود الفلاشا من أثيوبيا إلى إسرائيل فقد جاءه جورج بوش نائب الرئيس الأمريكي بنفسه، واحتفظ الرئيس جعفر نميري بكل الشكليات التي لا تُظهره متورطا مع أنه متورط بالطبع في الموافقة على تهجير هؤلاء إلى إسرائيل، وهي خطة أمريكية تستهدف معاونة إسرائيل لتزداد بهم عددا ومنعة في مواجهة العرب.

وقد كان الرئيس جعفر نميري في هذا التصرف تكرارا طبق الأصل لكل العسكريين العرب الذين كانوا يُجاهرون لشعوبهم فقط بما لم يكونوا قادرين عليه في ظل حرصهم على استرضاء أمريكا أو عدم إغضابها. ومع هذا فإن الرئيس جعفر نميري لم يسلم من شرور أمريكا بسبب بعض توجهاته الإسلامية وبسبب قوة أدائه في عصر لم يكن الأمريكان يرحبون فيه بشخصيات من طرازه وإنما كانوا يُشجعون طرازا أقل قُدرة وأكثر طاعة.

دوره في وقف التمدد السوفييتي

كانت علاقة الرئيس جعفر نميري بالاتحاد السوفييتي مرتبطة بما ألمحنا إليه من أن اليسار الشيوعي العربي لا يُخلص إلا لنفسه، ولا يرى في التآمر عيبا حتى إن كان التآمر مكشوفا، وربما أن انقلاب هاشم العطا كان أكبر فضيحة لقيها اليسار العربي قبل أن يتضاءل دور السوفييت في منطقة العرب على نحو ما حدث طيلة السبعينات.

وفيما قبل فشل انقلاب هاشم العطا فقد كانت المظلة السوفييتية قد سيطرت تماما على اليمن الجنوبي، وسيطرت جزئيا على السودان وكانت متجهة باقتدار للسيطرة على القرن الإفريقي، ولو أن انقلاب هاشم العطا نجح ما كان من الممكن أن تبقى مصر بعيدة عن الشيوعية لا هي ولا الجمهورية العربية الليبية كما كانت تُسمى في ذلك الوقت، لكن القذافي كان قد حسب الأمور حسب المعطيات التي لم يكن أحد يتصور أنه يعرفها.

وهكذا أفشل العقيد معمر القذافي بروتوكول الانتشار السوفييتي في أحرج لحظة من لحظات الصعود السوفييتي، وإن بدا أنه فعل ذلك لمصلحة الرئيس النميري، نعم.. كان هذا التوجه القذافي والفعل القذافي غير المسبوق يستهدف مصلحة الرئيس جعفر النميري جزئيا لكنه كان في جانبه الأهم والأعمق لصالح الأخ الأكبر الذي في البيت الأبيض.

المقارنة بينه وبين الرئيس الأسد

توفي الرئيس النميري ٢٠٠٩ بعد خمسة أيام من مرور أربعين عاما بالتمام والكمال على انقلابه ١٩٦٩ وتسلمه الرياسة وهو في التاسعة والثلاثين، ومن الطريف أنه ولد مع الرئيس السوري حافظ الأسد في نفس العام ١٩٣٠ لكنه عاش بعده تسعة أعوام كانت ضمن أربعة وعشرين عاما قضاها رئيسا سابقا بينما عاش الرئيس الأسد العقود الثلاثة الأخيرة من عمره رئيسا بعدما وصل للرياسة في الأربعين.

أما الذي أنشأ هذا الفارق بين هذين الرئيسين القويين فهو مدى المسافة من قاعدة أمريكية ثابتة عرفت باسم إسرائيل.

* * *

٢

الزعيم المحجوب

الذي أعاد ترميم صورة الرئيس عبد الناصر فكوفئ بالنفي والنكران

من التعبيرات التي أُسيء استعمالها وربما أُسيئت صياغتها تعبير إعادة بناء الإنسان، فليس من الممكن إعادة بناء الإنسان، لكن المعنى الذكي المقصود في بعض الحالات هو إعادة بناء صورة الإنسان، وهو معنى سيكولوجي ووجودي وسياسي متميز، وهو في حد ذاته يُمثل التحدي الأول في عالم السياسة في الأزمات والمعارك الكبرى ذلك أن إعادة بناء صورة الإنسان سواء في ذلك صورة الزعيم وصورة الجندي تكفُل النصر في أية معركة قادمة كما تكفل إيقافا للنزيف المترتب على الهزيمة في المعركة السابقة.

وفي حالة أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كان مفتاح النجاح هو إعادة بناء صورة الإنسان الأوربي بكل ما تعنيه الكلمة، والمتأمل للتاريخ السياسي والاجتماعي لأوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الآن يدرك الأهمية اللا متناهية لهذا المعنى.

المحجوب أدى الدور الذي لم يكن بمقدور أحد غيره

في حالتنا، أي في حالة الوطن العربي المعاصر، فإن أم التحديات التي واجهت مستقبل الوطن كانت هي بناء صورته بعد هزيمة ١٩٦٧، وقد شمل هذا المعنى صورة الزعيم (ولا نقول الرئيس) لأن المعنى كان مرتبطا بزعامة كانت لها ادعاءات وأطروحات وطموحات وتبعات كما أنها أي الزعامة هي التي سببت الهزيمة الساحقة بتصرفاتها التي لم تحسب حسابا إلا لشيء واحد هو الزعامة ومهابة الزعامة وقُدرة الزعامة.

باختصار شديد كانت الأمة العربية في حاجة إلى سياسي مُقتدر يستطيع أن يُعالج ما خلقته وما خلّفته هزيمة ١٩٦٧من صورة ممزقة لزعامة الرئيس جمال عبد الناصر وأن يُعيد تركيب هذه الصورة بأكبر قدر من الترميم المتقن الكفيل باستبقاء ملامح الزعامة مع عدم طمس هذه الملامح أي أن تبقى هناك شعارات قادرة على أن تُطمئن الجماهير أن الزعامة لم تنته وأن الحلم العربي لم ينته.

وباختصار شديد يعطي لكل ذي حق حقه فإن محمد أحمد المحجوب ١٩٠٨ -١٩٧٦ هو هذا الرجل هو الذي أعاد بناء صورة الزعيم جمال عبد الناصر بعد أن تعرض العرب بسببه لأصعب هزيمة في التاريخ، فهو الذي نظم مؤتمر الخرطوم أو القمة العربية التي عقدت في ضيافة السودان أغسطس ١٩٦٧ وتكفلت برفع الروح المعنوية للعرب وزعيمهم الرئيس عبد الناصر، بعد أن اتضحت معالم ومآسي الهزيمة الساحقة، وهي المعالم التي كان قد تم إخفاؤها (مؤقتا) لأسابيع بفضل السيطرة على وسائل الإعلام لكن الحقيقة سرعان ما اتضحت وفرضت نفسها على الوجدان الجريح.

كان الأمر في إعادة بناء الصورة يتطلب خمسة عناصر لم يكن من الممكن أن يتم الترميم بدون استيفائها كلها، كان يتطلب مسرحا وصورة ووفاقا ومبايعة وعهدا جديدا من شعارات جديدة.

كيف أعاد المحجوب بناء صورة الرئيس عبد الناصر

جاء الفنان الأديب الشاعر المفكر محمد أحمد المحجوب رئيس وزراء السودان ووفر هذه العناصر الخمسة بطريقة تبدو الآن بسيطة لكنها كانت مذهلة في مقاربتها وعبقريتها ونجاحها:

• **فالمسرح** هو مسرح مؤتمر القمة العربي في الخرطوم أغسطس ١٩٦٧ بعد المعركة بشهرين وفي عاصمة لم تمارس المزايدات ولم تُعرف باستضافة المؤتمرات، نظرا لأنها محدودة الموارد وغير راغبة في سمعة الزعامة والصدارة، وهكذا فالمسرح جديد بكل ما توفره الجدة من خلاص من تراث الماضي ومعقباته الخطرة.

• **الصورة** هي صورة الرئيس جمال عبد الناصر واقفا بين زعماء العرب، وقد أحاط به أعداؤه قبل أصدقائه، من أخطأ في حقهم، ومن ظن أنه لم يخطئ في حقهم وإن كانت الحقيقة أنه أخطأ في حقهم جميعا. كانت هذه هي صورة الواقفين على خشبة المسرح والزعيم المنهزم الواقف بينهم، لكن الصورة الرحبة للمسرح لم تقتصر على خشبته وإنما اتسعت بعد زوال حائطه الرابع فأصبحت مؤمنة ومضمونة ومصونة بجماهير سودانية غفيرة تعرف معنى النخوة والشهامة والبطولة والفداء وتحب مصر حبا جما رغم كل الأذى الذي ألحقته بها (ولا تزال) مصر الناصرية.

• **الوفاق** يتحقق بين أكبر خصمين من الزعماء العرب، كانا في ذلك الوقت قد وصلا إلى مرحلة تكسير عظام بعضهما البعض في اليمن وقد فشلت محاولات وفاقهما من قبل، فقد كانت محاولات روتينية بيروقراطية تستهدف الصورة الإعلامية دون خوض في المشكل الحقيقي وحل له.. وقد تكفل المحجوب بذكائه بإتمام هذا الوفاق الذي ضمن سحب الجيش المصري من اليمن بصورة شبه مُشرفة، وضمن سحب الرئيس السلال نفسه بطريقة اعتبرها السلال نفسه خيانة ناصرية له، في المقابل ابتعد الملكيون (الحميديون) عن الصورة بطريقة شبه مُشرّفة أيضا. وقد كان المحجوب بحنكته وخبرته ودبلوماسيته هو الرجل الذي تولى إنجاز ما فشل فيه الجميع من قبله، وهو إتمام التوسط والصلح بين الملك فيصل والرئيس جمال عبد الناصر وإزالة مظاهر الخلاف الحاد المتفاقم بينهما، وإنهاء المواجهة في اليمن بطريقة يمكن وصفها على نحو ما فعلنا بأنها شبه مشرفة للجميع ذلك أنها صدرت للرأي العام تحت أغطية الصمود والتوحد في مواجهة العدو.

• **المبايعة**: تجلت في صيغة قرارات القمة كما تجلت في استقبالات الجماهير للزعيم المنهزم وللوفود ثم لقرارات القمة ثم مبايعتهم للقادة ثم وداعهم الحار للجميع. وقد توصلت القمة العربية بفضل حماس صادق وصياغة ذكية إلى ما بايعتها عليه الجماهير وهو ما عرف على أنه الموقف العربي الموحد أو ما عرف بأنه نظرية اللاءات الثلاث، وكان هذا الموقف الذي خرجت به القمة هو نقطة الذروة في التعاون العربي في العصر الحديث.

• **التجديد في الشعارات**: يُمكن تلخيصه في كلمة واحدة لم يستعملها المؤتمرون، لكنها هي الحقيقة وهي أن الرئيس جمال عبد الناصر والعرب من وراء قيادته قرروا الصمود بعد أن فشل الصعود، والمعنى الموجز للفارق بين الكلمتين لا يتمثل في حرف واحد لكنه عبر عن نفسه بتعبير ينفي الظن والمظنون في مثل هذه الحالات إذ تمثل هذا الصمود في اللاءات الثلاث: لا صلح ولا تفاوض ولا اعتراف بإسرائيل، ورغم ما قد نفهمه الآن بعقلية صُقلت بخمسين عاما مضت على ١٩٦٧ من أن هذه الشعارات

كانت في حد ذاتها قيدا على صاحب القرار فإن الأمر لم يكن يحتمل غير هذا في أغسطس ١٩٦٧، صحيح أنه ربما كان من الواجب إعادة النظر في الصيغة في ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ أو١٩٧٠ وهو ما لم يفعله أحد، لكن ١٩٦٧ بكل حماسها وبكل خيبتها وبكل قسوتها وهزيمتها لم تكن تحتمل ما هو أدنى من هذا الشعار الجديد البراق.

بداية عصر وفاق عربي فاعل

بعد تحليلنا لهذه الصناعة على يد المحجوب والأزهري والسودان، نتأمل الآن في المنتج الذي مثلته هذه الصورة الجديدة فنجد أن منتوج Output هذه القمة كان إيذانا ببدء مرحلة جديدة من تعاون عربي بديلا عن تشرذم، وتكافل أخوي بديلا عن تربص، وموقف واحد من عدو واحد بدلا من مواقف متناقضة وعداوات متعددة للذات.

إذا قلت إن هناك من شارك محمد أحمد المحجوب في إتمام هذا كله فإنك محق، لكنك إذا بحثت عن أحد غيره كان قادرا على أن يتم هذا كله فكرا ونصا وصياغة وإخراجا، فلن تجد في العرب المُتاحين في ذلك العصر غيره. تتأمل في هذا الموقف فترى أن الله سبحانه وتعالى يلطُف بعباده حين يشاء لهم اللّطف وأنه وحده القادر على أن يرزق المُبتلى من حيث لا يحتسب. ثم تتأمل نكران الجميل الناصري في حالة المحجوب الذي فقد كل شيء بعد أقل من عامين: منصبه وصحته وحريته وحياته نتيجة انقلاب عسكري في مايو ١٩٦٩ فلا تملك إلا أن تدعو الله ألاّ يتكرر هذا النكران.

أدواره الثلاثة في الأمم المتحدة والصعيد الدولي

لم يقف جهد المحجوب في ترميم صورة الزعامة العربية عند حدود مؤتمر القمة، بل امتد إلى الصعيد الدولي كما العربي، فقد وظف محمد أحمد المحجوب كل قدراته الفكرية والبيانية ومعرفته بالإنجليزية الراقية وبالقانون الدولي في التحدث باسم الوفود العربية في الأمم المتحدة، وقد أجمعت الوفود العربية على أن تفوضه وهو رئيس لوزراء السودان للتحدث باسم المجموعة العربية في جلسات الجمعية العامة للأمم

المتحدة وكانت تلك المهمة صعبة وعصية تماما لكنه اضطلع بها إعدادا وإلقاء بأفضل صورة، وامتد أثر حديثه القانوني في هذه الجلسة فترك أثره منذ ذلك الحين في فهم منظمة الأمم المتحدة وقرارتها للصراع العربي الإسرائيلي وتعاملها القانوني مع هذا الصراع منذ ذلك الحين.

ومن الحق أن نقول إن هذا لم يكن أول مواقف محمد أحمد المحجوب في دعم الرئيس عبد الناصر في المجتمع الدولي، فقد قام بمثل هذا الموقف عند وقوع العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ وكان هو أيضا هو وزير الخارجية العربي الذي تولى الحديث في الأمم المتحدة دفاعا عن الحق العربي وتنديدا بالعدوان الثلاثي.

ومن العجيب إن الأدبيات التاريخية المصرية تقفز على هذه الأدوار الثلاثة للمحجوب، بل إن بعضها وبخاصة كتابات المزورين تنصرف عن الموضوع الى إبداء العداوة لهذا الرجل العظيم والحقد على قدراته وأدائه وهو الذي لم يشهد عصر الثورة نظيرا مصريا له. بل تبقى الحقيقة المرة وهي أنه مع كل هذا العطاء والإخلاص فإن محمد أحمد المحجوب سرعان ما لقي من عبد الناصر من نكران الجميل والغدر ما كان النظام الناصري لا يستغني عنه ولا يفرط فيه في كل الأوقات وإن كان الوجدان العربي يذكر مواقف المحجوب بكل الامتنان.

شخصيته الفريدة

والواقع أن حضور محمد أحمد المحجوب ١٩٠٨ ـ ١٩٧٦ ونجاحه لم يأت من فراغ، وإنما كان حضوره وإنجازه يستند إلى تاريخ طويل وزاد كبير، فلم يصل أحد من مثقفي العرب إلى ما وصل إليه محمد أحمد المحجوب من مكانة في السياسة والثقافة معا، وقد كانت ثقافته تُصنف في مصاف أفضل رموزها في العالم ولو أنه تخلى بعض الشيء عن عروبته أو وطنيته لنال كثيرا من التكريم الدولي الذي كان كفيلا بأن يقدسه العرب بسببه لكنه كان شأنه شأن المخلصين، مأخوذ الوجدان بأمته وآمالها لها فلم يعن بأن يحصل على جائزة نوبل على سبيل المثال ولو أنه فكر فيها لنالها.

ولد محمد أحمد المحجوب عام ١٩٠٨ بمدينة الدويم في ولاية النيل الأبيض وعاش في كنف خاله محمد عبد الحليم، وكان جده لأمه عبد الحليم مساعد الساعد الأيمن لقائد المهدية عبد الرحمن النجومي..

تلقى محمد أحمد المحجوب تعليمه الأولي في الخلوة فالكتاب بالدويم، ثم فى مدرسة أم درمان الوسطى.. وقضى حياته الجامعية (شأنه شأن النخبة السودانية في عهده) في كلية جوردون في الخرطوم، وتخرج فيها ١٩٢٩ وهو في الحادية والعشرين من عمره، وكان بهذا يوازي خريجي الدفعة الأولى من دفعات كليات جامعة القاهرة الذين تخرجوا في ١٩٢٩ وكان أغلبهم مثله من مواليد ١٩٠٨.

ومع أن المحجوب تخرج في قسم الهندسة وعمل مهندسا في مصلحة الأشغال فإن ثقافته الواسعة وروحه الوثابة دفعتاه إلى الدراسة مرة أخرى في مجال القانون، ونال الإجازة في الحقوق عام ١٩٣٨، وهكذا فإنه تخرج في مدرسة القانون بعد مدرسة الهندسة وأصبح في حالة فريدة ونادرة انفرد هو بها قاضيا بعد أن كان مهندسا، وقد مارس القضاء والمحاماة بالفعل، فقد عمل في ميدان القضاء منذ ١٩٣٨ وحتى استقال عام ١٩٤٦، ليعمل بالمحاماة.

فيما قبل ذلك كانت النشأة الوطنية قد أتاحت لمحمد أحمد المحجوب أن يشهد ثورة ١٩٢٤ في السودان التي كانت صدى لثورة ١٩١٩، في مصر، وقد شارك في الثورة وأحداثها، كما شارك فيما تلا مصرع السردار السير لي ستاك من أحداث جعلت الإنجليز ينتهزون الفرصة لتقوية قبضتهم الاستعمارية على السودان على حساب وحدة وادي النيل والوجود المصري.

وبعد هذه الثورة بعشر سنوات صدرت "مجلة الفجر" التي رأس تحريرها عرفات محمد عبد الله أحد رموز الحركة الثورية في السودان، وكانت المجلة تعبيرا ناضجا عن الثورة الناضجة، وفيها كتب المحجوب ونشر شعره مع التجاني يوسف بشير ويوسف مصطفى وغيرهما.

مؤتمر الخريجين

مارس المحجوب السياسة مع نوابغ أبناء جيله في مؤتمر الخريجين، لكنه مارسها برؤيته هو نفسه، خالف فيه إسماعيل الأزهري وأشقاءه، وإن كانت روح العمل والهدف واحدة بينهم. وتجلت مواهبه وعناصر زعامته على نحو بارز ومُعترف به، وسطع نجمه السياسي كأحد القيادات المتميزة.

وعلى نحو ما هو معروف في حركيات القوى الاجتماعية التي تعمل من أجل الاستقلال فقد كان هناك اختلاف في الرؤى بين الفصائل السودانية المختلفة، وقد تمثلت أبرز نقاط هذا الاختلاف في الموقف من البقاء مع مصر تحت تاج واحد (أو تحت علم واحد).

كان السودانيون بمشاعرهم الصادقة يؤمنون بعروبتهم وإسلامهم وبأن الوحدة مع مصر هي الأمر الطبيعي، لكن المتصلين بالتخطيط لمستقبل المنطقة من أمريكان وغربيين لم يكونوا مرتاحين إلى مثل هذه القوة البازغة، أما القادة السودانيون الذين كانوا لا ينفصلون عن مشاعر شعبهم فإنهم كانوا يحملون خبرات سيكولوجية إضافية بسبب الماضي أو الحاضر. ومن المدهش أن التحزب تم بطريقة شبه هندسية حيث آثرت طائفة الميرغنية (أو الختمية) التوجه مع المطالبين بالوحدة على حين آثرت الطائفة المهدية التوجه مع المطالبين بالانفصال.

كان "الأنصار" المعروفون باسم "المهدية" والذين أسسوا فيما بعد "حزب الأمة" يتذكرون بمرارة موقف الجيش المصري الذي حاربهم مع الجيش البريطاني وقضى على الثورة المهدية في السودان التي كانت مواكبة لثورة عرابي في مصر. ومع أنهم كانوا يعرفون عن حق أن الجيش المصري عبد مأمور وأنه آذى الثورة العرابية رغم أن قادتها كانوا من ضباطه لكنهم لا يزالون يذكرون أبطالهم الذين استشهدوا على يد البريطانيين الذين استعانوا بالمصريين على قتال وقتل السودانيين.. كان هؤلاء يذكرون مثل هذا التاريخ بالمرارة المعقولة فيحذرون ويحتاطون ويكرهون أن تتكرر فيهم تجارب أخرى ليسوا على استعداد لدفع ثمنها، وكان مع هؤلاء الحق كل الحق ولا نقول كان معهم حق أو حق ما.

كان السودانيون الذين تولوا الوظائف المدنية يعلمون بخبرتهم أنهم لن يكونوا سُعداء في ظل سطوة المصريين البيروقراطية وكانت تجاربهم الممتدة في مجالات متعددة تُحذرهم من الوثوق الكامل بالمصريين.

نشأة توجه السودان للسودانيين

كان الساسة السودانيون الذين يزورون مصر يدركون أن هناك من يُحبهم كالوفد والإخوان المسلمين والسعديين والدستوريين والحزب الوطني، كما يدركون أن هناك جماعات لا تعرف عنهم شيئا ولا تريد أن تمد يدها إلا في حدود ما تستطيعه القاهرة من سيطرة فحسب، بل إن بعض مفكري مصر كانوا يظنون أن العمق السوداني يمنعهم من الذوبان الأوربي، مع أن السودانيين كانوا لا يقلون عنهم إثباتا للذات في ندية التعامل مع الثقافة البريطانية على سبيل المثال.

لهذا كله لم يكن غريبا أن يكون هناك اتجاه يُنادي بالشعار التقليدي الذي استخدمته شعوب كثيرة من قبل وهو شعار السودان للسودانيين وأن يكون مفكر بقامة محمد المحجوب من هؤلاء وذلك في مقابل المنادين بالاتحاد وعلى رأسهم إسماعيل الأزهري. أعلن المحجوب انضمامه لحزب الأمة، الذي رفع شعار الاستقلال في مواجهة شعار وحدة وادي النيل، الذي كان يرفعه إسماعيل الأزهري، وعلى حين استعان الأزهري في البداية بالطائفة، فإن محمد أحمد المحجوب لم يستسلم للطائفة. ولكن هذا لم يمنع المحجوب والأزهري من التعاون سوياً في سبيل الخلاص من الاستعمار البريطاني.

وهكذا أصبح المحجوب هو المفكر المدني أو العلماني المُعبّر عن توجه الأنصار أو المهدية، على حين أصبح الأزهري في الطرف الآخر هو المفكر المدني أو العلماني المعبر عن توجه الختمية والمرغنية.

انتخب محمد أحمد المحجوب عضواً بالجمعية التشريعية (البرلمان السوداني) عام ١٩٤٧ واستقال منها عام ١٩٤٨.

بداية توجسه من ديكتاتورية عبد الناصر

ومع أن محمد أحمد المحجوب كان من المتيمين بمصر ورجالها فإنه كان من الذين استشعروا خطر الديكتاتورية الناصرية، وهكذا فإنه كان من الذين عارضوا عبد الناصر في ١٩٥٤ وانحازوا إلى عودة الرئيس نجيب وطالبوا بعودة الديموقراطية، وقد نجح السودانيون في هذا لكن عبد الناصر تمكن من الالتفاف والتخلص مما اتفق عليه معهم، فلما اكتشف السودان ميكيافيلية عبد الناصر مع عزله لنجيب ومُجافاته للديموقراطية والقوى المدنية اجتمع الاتحاديون والانفصاليون على هدف واحد وهو الخلاص من حكم عبد الناصر.

كان المحجوب صادقا مع نفسه، وهو الذي آثر أن يكون على رأس الذين دعوا للانفصال عن مصر وهو ما تم في اليوم الأول من يناير سنة ١٩٥٦برغم كل علاقاته الحميمية بمصر ومُثقفيها وفي مقدمتهم الأستاذ عباس محمود العقاد.

من الطريف أنه حين كان على مصر أن تدعم من يُطالبون بالاتحاد معها، فإن النظام الناصري خذلهم بل ذبحهم وهكذا أصبح المحجوب في موقف أقوى مرة واثنتين وثلاثا من موقف الأزهري، فلما أُعلن الاستقلال قال المحجوب قولته المشهورة: اليوم لا معارضة. مع أنه كان يومها زعيم المعارضة، ذلك أن الأزهري كان صاحب الأغلبية منذ نهاية عهد الملكية في مصر وطيلة عهد محمد نجيب وبداية انفراد عبد الناصر بالحكم منذ نوفمبر ١٩٥٤.

وليس من شك في أن ضجر السودانيين من ديكتاتورية الرئيس جمال عبد الناصر قادت إلى التعجيل بالتحول ضد الوحدة حتى لا يقع السودانيون تحت حكم الرئيس جمال عبد الناصر وصلاح سالم على نحو ما كانت الشعارات السودانية تقول وتهتف وتُعلن بل وتُكرر.

وبإعلان نتيجة الاستفتاء على استقلال السودان أصبح المحجوب في الموقف الأقوى جماهيريا وإن لم يظهر هذا بروتوكوليا ذلك أن السودان أخذ بالنظام البرلماني فأصبح منصب رئيس الوزراء أهم من منصب رئيس الجمهورية وأكثر من هذا فإن السودان لم

يستخدم لفظ رئيس الجمهورية مباشرة وإنما استخدم تعبيرات من قبيل مجلس الرئاسة ولم يستخدم تعبير رئيس الجمهورية بالنص الصريح إلا مع عهد الفريق عبود (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤).

في رئاسة الحكومة ووزيرا للخارجية

عقب استقلال السودان الذي أعلن ١٩٥٦ أصبح محمد أحمد المحجوب وزيرا لخارجية السودان عام ١٩٥٧ونظرا لما كان يتمتع به من مواهب ومقدرات فقد رشحه السودان أمينا عاما للأمم المتحدة في ١٩٥٨.

وبعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤ (يسميها السودانيون: فترة الديمقراطية الثانية) تولى محمد أحمد المحجوب منصب وزارة الخارجية مرة أخرى ثم كان هو الرجل الذي رأس الوزارة السودانية خلفا للزعيم السوداني الشاب الصادق المهدي، إلى جانب مهام وزير الخارجية. وظل حتى قيام انقلاب مايو ١٩٦٩ المسمى بثورة النميري فتعرض بعدها للسجن وحياة المنفى. ومن الطريف في الامر أن نهاية الديموقراطية على يد الرئيس جعفر النميري ١٩٦٩ حدثت في الوقت الذي كان فيه الأزهري رئيسا والمحجوب رئيسا للوزراء.

وأودع الرجلان العظيمان السجن، بعد أن حل الانقلاب العسكري (أو الديكتاتورية الثانية) محلهما منذ ١٩٦٩ وحتى ١٩٨٥ وعلى حين توفي إسماعيل الأزهري في نفس العام كمدا ومرضا وألما فقد عاش المحجوب سنوات من التعذيب لم تكن تقاليد العروبة تسمح بها، لكن التاريخ يُحدثنا عن أن هذا الجحود تكرس من دون أن ينتبه له أحد من زعماء العروبة أو ملوكها أو رؤسائها بمن فيهم الرئيس جمال عبد الناصر والملك فيصل. وهكذا فإنه في ١٩٦٩ و١٩٧٠ كان الزعيم الجزائري بن بيلا في السجن، وكان الأزهري على مشارف الموت، وكان المحجوب في السجن، وكان عبد الرحمن عارف في المنفى، وكذلك بعض رؤساء سوريا، وكذلك كان عبد الله السلال في المنفى وكان المنفى هو أخف السجون.

شعره وشاعريته

أما المحجوب الشاعر، فشاعر مطبوع ومجيد وقد تجلت قدرته الشعرية في ديوانه "الفردوس المفقود" الذي كان بمثابة قمة التعبير عن كل من الحضارة العربية والخصوبة الإفريقية، وقد هزه الحنين إلى الماضي العربي الإسلامي، وجسد صورة حية للبطولات والأمجاد، لماضي كما ما ظل ينشده.

قال في رثاء زعيمه ومعلمه الإمام السوداني عبد الرحمن باشا المهدي:

يا صانع المجد للسودان قد غربـــت شمس النهار وهذا البدر يحتجـــب
وأوشك الناس من شك ومن جزع أن يحسبوك إلها لـــيس يحتســـب
قد صادقوك وكان الصدق رائـــدهم وصاحبوك إماماً، خير من صحبوا

وله من الشعر الغزلي شعر كثير غير مشهور منه قوله:

كم رشقت الرحيق من كل ثغـــر أجد القلب حرقة واتياعـــا!
وهصرت الغصـــون والليـــل داج وجنيت الجنى ونلت المتاعـــا
وبثتـــت الغـــرام في كـــل روض ضمخ الزهر أفقه والبقاعـــا!
يـــا ربيـــع الحيـــاة قـــف تمهّـــل انـــا والله لا أطيـــق وداعـــا!

وقد كتب قصيدة في الشاعرة فدوى طوفان:

فديتُكِ "فـــدوي" أســـعَدتِني بنجوى الحبيب البعيد القريـــب
شـــكوتُ القيُـــودَ وآلامَهـــا وقلبكِ منها جـــريح خضِـــيبْ
فكُنت الضيَاء وكنْت الرقـــي وكنتِ الجمالُ الفريـــدُ الحبيـــبْ
وكنْت الأنيسَ وكنت المنَـــى لقوم ظمـــاء بـــوادٍ جـــديبْ!

يقول محمد أحمد المحجوب في قصيدته "شهيد الرجاف" التي تعتبر من عيون الشعر العربي، والتي نظمها تخليداً للشهيد عبيد حاج الأمين الذي سقط شهيداً دفاعاً عن الحرية وهو في منفاه:

وتأودت سمر القنا مـــن ســـفحه ترثي شهيداً في التراب دفينـــا

لم يألف القيدَ المـــذل و لم يكـــن	للعار في يوم الطعان، قرينـــا
وهـــب الـــبلاد حياتـــه متـــهللا	وقضي حميداً بالخلود قَمينـــا
وما زلزال الرجاف غـــير رفاتـــه	رتلن أياً أو شـــدون حنينـــا
صرخاتُ مشتاق لصهوة ســـابح	وزئير أسد قد حَمينَ عَرينـــا

حقد الأستاذ هيكل على الزعيم المحجوب

كان من عادة الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يستغل أية فرصة في استطراداته ليصفي حساباته مع من كانوا يعرفون حقيقته أو يعاملونه من دون التملق الذي كان يتمناه منهم، وكان يفعل هذا ببساطة شديد من غير أن يدرك أن تصرفه يصيب صورة المصريين في مقتل وبخاصة أنه كان ينتهز فرصة وفاة من يهاجمهم أة انتهاء نفوذهم وفقدانهم للحرية، لإظهار شجاعته وقوته.

وانظر إلى هذا الحقد الدفين الذي أظهره الأستاذ محمد حسنين هيكل تجاه رئيس الوزراء السوداني الأشهر محمد أحمد محجوب، مع أن هذا الرجل قدم لمصر وللزعامة الناصرية ما لم يقدمه أي سياسي عربي آخر عن حب واقتناع، وقاد مظاهرة مؤتمر الخرطوم في ١٩٦٧التي أعادت ترميم صورة عبد الناصر وقدمته كزعيم لمرحلة اللاءات الثلاث،، لم يكن هذا السياسي العظيم أنه يتصور جلب لنفسه من الأستاذ محمد حسنين هيكل الحقد والغيرة بسبب كفايته الفائقة، فهو أكفأ منه في الكتابة والسياسة معا، فضلا عن أنه مفكر حقيقي، وسياسي حقيقي، وأديب حقيقي، وزعيم حقيقي، وعن أنه كان يتمتع بإعجاب عبد الناصر بشخصيته، ولهذا كله فإن الأستاذ محمد حسنين هيكل يحرص علي أن يلمزه في هامش من ستة سطور بأكثر من خمس نقائص، فهو انفصإلى ضد الوحدة، وهو كاره لمصر، وهو «موظف» عند «المهدي»، وهو محب للحياة ويستمتع بها (وهذا هو التعبير الذي يصف به الماديون من يريدون وصفهم بأنهم تفوقوا في إسعاد أنفسهم بالاستمتاع بالملذات الحسية!!)، وهو يؤصل للكراهية بشعر مغرق في العنصرية.... كل هذا يأتي في الهامش الذي يخصصه الأستاذ محمد حسنين هيكل للتعريف بالرجل العظيم حين كان الرجل في قمة عطائه لمصر وللعروبة، لكن حقد الأستاذ محمد حسنين هيكل علي مقومات شخصية الرجل لا ينتهي، وبخاصة أن

محجوب فيما تلا ذلك من عهود كان ينظر إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل نظرة علوية تركز علي أنه يهوذا الذي ذبح أستاذه مصطفي أمين..

كذلك فقد كان محجوب عارفاً بأحوال مصر ورجالها بأكثر مما هو مطلوب، ولهذا فقد كان الأستاذ محمد حسنين هيكل علي الدوام كتابا مفتوحا أمامه.

اقرأ هذه الفقرة التي حرص الأستاذ محمد حسنين هيكل علي أن يضعها في الهامش حين وصل إلى الحديث عن محمد احمد محجوب وهو في ذروة عطائه لمصر ولعبد الناصر:

«كان الأستاذ «محمد احمد محجوب» محاميا بدأ حياته العملية مستشاراً لدائرة السيد «عبد الرحمن المهدي» (باشا) زعيم طائفة «الأنصار» وكان مقرباً منه وكان كاتبا وشاعرا وفنانا يُحب الحياة ويستمتع بها وكان «محجوب» معارضا لفكرة الوحدة مع مصر ودائم الترديد لبيت من الشعر يقول:

«ولو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين»

ومؤدى معناه أنه حتى في حالة الذبح فإن الدم المصري له مجرى يسيل فيه والدم السوداني له مجرى آخر، ولا يلتقي الدميان أبداً».

آثاره الفكرية

أما كتابه عن الديموقراطية فيعد أحد أهم المراجع التاريخية والفكرية والسياسية لا في السودان فحسب بل في الوطن العربي كله والدول المتصلة به وقد كتب مقدمة هذا الكتاب اللورد كارادون الذي يعتبر من مفكري عصره في بريطانيا وفيها قال:

"رغم اتهام المحجوب للإدارة البريطانية في السودان بتقوية الانفصال في الجنوب بل بتشجيعه، وهي تهمه خطيرة، وأخشي أن تكون جزئياً صحيحة. لكن البريطاني يجد بعض الرضاء حين يعلم أن المحجوب يتكلم دوماً عن البريطانيين باحترام وفي الصميم بود.. والحقيقة أن أحكامه علي الناس والقضايا تجي عادة متسامحة أكثر منها ناقدة. فقد سرّه نطق الملك الحسن ملك المغرب السليم باللغة العربية، وأعجب بشجاعة الملك حسين وصراحته، وأخذ بسحر الملك فيصل وقوته، حتى كلامه عن الرئيس ناصر، الذي خدعه في النهاية كان كلام صديق".

المؤلفات:

"الحركة الفكرية في السودان: الى أين تتجه؟" الخرطوم ١٩٤١

"الحكومة المحلية في السودان" القاهرة ١٩٤٥م

و"موت دنيا" القاهرة ١٩٤٦ مشترك مع عبد الحليم محمد

و"نحو الغد" الخرطوم ١٩٧٠م

و"الديمقراطية في الميزان" بالعربية وبالإنجليزية: Democracy on Trial

أما دواوينه الشعرية فهي:

- قصة قلب، بيروت، ١٩٦١
- قلب وتجارب، بيروت، ١٩٦٤
- الأندلس المفقود، بيروت، ١٩٦٩
- مسبحتي ودني، وقد نُشر في القاهرة بعد وفاته

وله من المخطوطات:

- الشعر والشعراء

المقالات

كتب محمد احمد المحجوب في الكثير من المجلات والصحف أشهرها حضارة السودان والنهضة ثم الفجر، وقد جمع السودانيون بعض مقالاته ومحاضراته باللغة الإنجليزية المقالات والخطب المتعددة داخل البرلمانات السودانية المتعاقبة أو في أروقة الأمم المتحدة ومنظمة الدول الأفريقية. كان زعيم المعارضة داخل البرلمان,

نال الباحث كمال الدين محمد الماجستير من جامعة الأزهر عام ١٩٨٢ عن رسالته: محمد أحمد محجوب أديباً) وأجاز معهد الدراسات الأفريقية بجامعة الخرطوم عام ١٩٨٣ رسالة دبلوم عال للباحث محمد عمر موسى بعنوان "محمد أحمد محجوب: لمحات من حياته السياسية." النشرة التعريفية التي قام بإعدادها الدكتور محمد الواثق الذي ترأس قسم اللغة العربية بجامعة الخرطوم.

* * *

٣

إسماعيل الأزهري

الزعيم السوداني الذي ذبحه الرئيس عبد الناصر ثلاث مرات

كان موقف النظام الناصري من الزعيم السوداني إسماعيل الأزهري ١٩٠٠- ١٩٦٩ أول رئيس للسودان بمثابة أبرز نموذج لفشل نظام الرئيس جمال عبد الناصر في المُضي قُدما في سياساته العربية الوحدوية التي ظل يُنادي بها حتى مع تنامي هذا الفشل. كان إسماعيل الأزهري منذ ١٩٤٣ زعيما للسودانيين المُطالبين بالاتحاد مع مصر في مقابل المهديين المطالبين بالانفصال، وقد أقام سياساته ودعاياته وخطابه السياسي على هذه الفكرة وظل يدعو إليها قبل أن يتم الاستفتاء الذي جعله البريطانيون مقدمة لما سُمي باستقلال السودان الذي تم إعلانه في مطلع يناير ١٩٥٦.

بداية الخذلان

وقد تحقق خذلان إسماعيل الأزهري على يد الرئيس عبد الناصر قبل أن يتحقق باستفتاء السودانيين، وكان الخذلان الناصري للسودان والأزهري إشارة مُبكرة للتوجهات القومية لكي تنتبه إلى حجم الافتراق المتصاعد بين ما يُنادي به عبد الناصر وبين خطوات نظامه السياسية والاستراتيجية التي تعمل في الاتجاه المضاد تماما لما يُنادي به سواء أكان ذلك عن قصد مُبيت أم عن سوء إدارة تجعل الفشل نتيجة طبيعية لقصور الأداء واضطرابه إلى حد مذهل على الرغم من بقاء الدعايات الإعلامية في الاتجاه التي بدأت به.

ومن العجيب أن هذا الموقف الناصري المحبط للسودانيين المؤيدين للوحدة مع مصر ظل يتنامى في كل تجربة تمر بها التجربة السودانية والديموقراطية السودانية، وقد ازداد تعقيد الموقف الناصري نتيجة لحسابات غير مُعلنة كانت تدفع عبد الناصر ونظامه إلى محاربة أي تجربة ديموقراطية في أي مكان قريب من مصر، وإجهاض أية تجربة ديموقراطية لصالح أي حكم عسكري.

القضاء على كل تجربة ذات ملامح إنسانية

بل إن الهدف الجوهري في نظام الرئيس عبد الناصر قد تطور في اتجاه آخر هو القضاء على كل تجربة ذات ملامح إنسانية في مقابل تشجيع أي حكم بديل يُجافي قواعد الرحمة والإنسانية، وقد تكرس هذا المفهوم إلى أبعد حد مذهل.

وهكذا تكرر خذلان مصر في عهد عبد الناصر للتجربة الديموقراطية في السودان.

نشأته الصوفية

كان السيد إسماعيل الأزهري صوفيا بالوراثة فقد بدأ حياته في الخلوة، بسبب انتمائه لعائلة من عائلات الصوفية الكبرى في السودان ونسبه في هذه العائلات معروف ومذكور ومقدور. وقد تلقى تعليمه الأولي على يد جده لأبيه السيد إسماعيل الأزهري الكبير الذي كان شخصية معروفة ذات نفوذ وتقوى واحترام ونشاط.

عاش السيد إسماعيل الأزهري حياة طبيعية بسيطة خلت من القسوة والسطوة والعنجهية والاستبداد وأنجب ابنا وخمسا من البنات، وترك سيرة حسنة وذكرا طبيا عند كل من عرفوه، وباستثناء حبه لمصر فإنه لم يتورط في أي محور عربي، ولم يكن تابعا لأي أحد من العرب ولا الغربيين كان نموذجا للاستقلال والاحترام والأداء النظيف النقي.

كان السيد إسماعيل الأزهري نموذجا للزعماء الوطنيين الذين يكتسبون الزعامة من القواعد الشعبية بفضل ديناميتهم وجاذبية أفكارهم وإجادة عرض هذه الأفكار.

وقد بدأ الزعيم إسماعيل الأزهري حياته المهنية بعد أن انقطع عن الدراسة في كلية جوردون التي التحق بها وهو في السابعة عشرة من عمره (١٩١٧) وعمل بالتدريس في مدرسة عطبرة الوسطى وأم درمان، ثم نال بعثة للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت وعاد منها ١٩٢٠ فكُلف بالتدريس في كلية جوردون وفيها أسس جماعة للمناظرة، وعندما تأسس مؤتمر الخريجين انتخب أمينا عاما لهذا المؤتمر (١٩٢٧).

مؤتمر الخريجين

كانت الفكرة من مؤتمر الخريجين أن يكون شبيها بحزب المؤتمر الهندي الذي تؤول إليه أمور السياسة المحلية بعد تحررها من الإنجليز، وذلك في تقليد (مهندس غربيا) لتجربة الوفد المصري بكل مقدماته ومساراته.

وقد شهد هذا المؤتمر (أي مؤتمر الخريجين) مناقشات ومجادلات نمت بفضل الوعي السياسي السوداني ومن عناصر التربية السياسية والفهم الديموقراطي وأضافت هذه النتائج إلى ما عُرف عن السودانيين من حب للثقافة والاطلاع وحب للجدل والنقاش، وتحديث آرائهم بما يتماشى مع التطورات العصرية.

ولا تزال هذه الخصال بارزة في المجتمع السياسي السوداني ونُخبته، كما أنها صفات تُعطي لهذه النُخبة تفوقا بارزا على النُخبة المناظرة في مصر على الرغم من علو صوت النخبة المصرية وكثرة ادعاءاتها وعلو منبرها

حزب الأشقاء

مع تطور الحركة السياسية السودانية وتمايز مواقفها تجاه قضية العلاقة مع مصر فقد تأسس حزب الأشقاء في ١٩٤٣ معبرا عن عقيدته في الوحدة مع مصر، وفي ذلك العام جمع السيد إسماعيل الرئاستين حيث أصبح رئيسا لمؤتمر الخريجين ورئيسا لحزب الأشقاء، وقام بأولى زياراته إلى مصر، وبعدها بثلاث سنوات اختير رئيسا لوفد الأحزاب المؤتلفة فيما سمي وفد السودان لحضور مفاوضات في مصر بشأن السودان.

وقد تواكب مع هذا التطور المؤسسي للحركة السودانية أن تشكل ما سُمي بالمجلس الاستشاري لحكومة السودان ١٩٤٤، كما أقام الإنجليز ما سمي بالجمعية التشريعية في ١٩٤٨ فقاد السيد إسماعيل الأزهري المظاهرات الوطنية لمقاطعة هذه الجمعية.

الوحدة مع مصر

ولما قامت ثورة ١٩٥٢ وجدها الأزهري وأقرانه فرصة ذهبية لإنجاح مساعيهم في الوحدة مع مصر إذ كانوا أصدقاء وزملاء الرئيس محمد نجيب القريب منهم في السن (إذ ولد عام ١٩٠١ بينما ولد السيد إسماعيل الأزهري عام ١٩٠٠ وكذلك ولد الفريق عبود ١٩٠٠) وفي ظل الحماس الوحدوي أعلن عن قيام الحزب الوطني الاتحادي في الوقت الذي كان فيه نجيب رئيسا للوزارة، وانتخب الأزهري رئيسا لهذا الحزب الوطني الاتحادي.

بناء على اتفاقية تقرير مصير السودان التي وقعت بين مصر وبريطانيا في فبراير ١٩٥٣ أجريت الانتخابات البرلمانية في نهاية العام ففاز الحزب الذي يرأسه الزعيم إسماعيل الأزهري بالأغلبية بما كان يدل على أن الوحدة مع مصر تتدعم وتتكرس بكل الوسائل.

وصل الأمر إلى أن الزعيم إسماعيل الأزهري نفسه فاز في دائرة أم درمان الجنوبية على منافسه السيد عبد الله الفاضل المهدي وكان هذا في حد ذاته دليلا ساحقا على شعبية الأزهري وعلى اقتناع السودانيين بالوحدة مع مصر.

وهكذا كوّن الزعيم إسماعيل الأزهري أول حكومة وحدة وطنية من حزبه الوطني الاتحادي في ١٩٥٤ على غرار ما فعله سعد زغلول في وزارة الشعب الأولى في ١٩٢٤، وبهذه الصفة حضر الزعيم إسماعيل الأزهري مؤتمر باندونج ١٩٥٥ جنبا إلى جنب أو بالأحرى رأسا برأس مع الرئيس جمال عبد الناصر.

أزمة الديموقراطية في مصر

على صعيد موازٍ كانت تداعيات أزمة الديموقراطية في مصر في ١٩٥٤ قد أثرت تأثيرا مباشرا على السودان إلى حد خروج المظاهرات الهاتفة بسقوط عبد الناصر والضباط الأحرار وبضرورة عودة محمد نجيب وهكذا أعيد محمد نجيب فيما عُرف بأزمة مارس ١٩٥٤ ريثما تمكن عبد الناصر من إعادة تنظيم صفوفه والغدر به وبالإخوان المسلمين في نوفمبر ١٩٥٤.

وكانت هذه هي النقطة الفاصلة في الافتراق السوداني حيث كان الشعار المرفوع علانية: هل تقبلون بعبد الناصر وصلاح سالم وتُضحون بالسودان وحرية السودان؟ وهكذا تراجعت أوراق السيد إسماعيل الأزهري ومكانته وجبهته بسبب سياسات عبد الناصر وزملائه.

الانفصال

وفي المقابل فإن الرسميين المصريين من الضباط الأحرار كانوا يرتبون أمورهم في اتجاه الخلاص من السودان وهو ما كان الأمريكان يشجعونهم عليه ويدفعونهم إليه بكل طريقة، وكان هذا هو الذبح الناصري الأول للزعيم إسماعيل الأزهري.

ولم يعد أمام الزعيم إسماعيل الأزهري إلا أن يوافق الجماهير على رغبتها في الخلاص من حكم العسكر في مصر وأن يرفع مع محمد أحمد المحجوب زعيم المعارضة السودانية في ذلك الوقت علم الاستقلال السوداني المكون من ثلاث ألوان مختلفة تماما عن ألوان العلم المصري الثلاثة التي انتشرت بعد ذلك في الجمهوريات العسكرية العربية (سوريا العراق واليمن وليبيا إضافة إلى مصر).

وقد اختار السودانيون لعلمهم الاستقلالإلى ألوان الأخضر والأصفر والأزرق، وكان من نتيجة الاستقلال أن سقطت حكومة الزعيم إسماعيل الأزهري الموصوف بالاتحادي وقامت حكومة عبد الله خليل.

وبالطبع فلم تكن القيادة الناصرية لترتاح إلى نشأة تجربة ديموقراطية مجاورة له، وهكذا فإنه بعد عامين وأشهر من استقلال السودان جاء انقلاب الفريق عبود ضد حكومة عبد الله خليل، وضد كل فرقاء الحياة المدنية، وكان هذا هو الذبح الناصري الثاني للسيد الصديق الزعيم إسماعيل الأزهري.

ومع أن الفريق عبود لم يكن بقسوة عبد الناصر ولا سيطرته، فإن الأمور كانت تسير في دخول العسكريين إلى السلطة وصعوبة خروجهم منها، ومع هذا فإنهم أخرجوا بتضافر المدنيين وثورتهم في ١٩٦٤ بعد ما اعُتقل إسماعيل الأزهري نفسه مع عدد كبير من القيادات السياسية وأرسلوا للسجن.

عودة الديموقراطية

وهكذا عادت الديموقراطية وبدأت التجربة (أو المرحلة) الديموقراطية السودانية الثانية، ففي ١٩٦٥ فاز السيد إسماعيل الأزهري في الانتخابات التي أجريت في دائرة أم درمان الغربية وانتخبه البرلمان كأول رئيس دائم لما سمي بمجلس السيادة وهو المنصب المعادل لرياسة الجمهورية، بينما تعاقب محمد أحمد المحجوب والصادق المهدي على رئاسة الوزراء.

مؤتمر الخرطوم

شهدت هذه الفترة انعقاد أشهر مؤتمرات القمة العربية وهو مؤتمر الخرطوم ١٩٦٧

حيث نجح محمد أحمد المحجوب ومعه الزعيم إسماعيل الأزهري في إتمام الصلح بين عبد الناصر والملك فيصل وإقرار السياسة العربية بعد هزيمة ١٩٦٧ متمثلة فيما عُرف من الصمود والتعاون والتصافي.

وبذل السيد إسماعيل الأزهري مع محمد أحمد الالمحجوب جهودا مذهلة في تأييد عبد الناصر ونظامه ودعم موقفه السياسي.. بيد أن نكران الجميل سرعان ما تحقق فجاء انقلاب النميري في مايو ١٩٦٩ لينهي التجربة الديموقراطية السودانية الثانية، وليمثل الذبح الناصري الثالث للأزهري.

وضع انقلاب العقيد جعفر النميري (الذي سرعان ما رقّى نفسه لواءً على عادة القادة الانقلابيين) الزعيم إسماعيل الأزهري رئيس الجمهورية نفسه (رغم تقدمه في السن) في سجن كوبر دون أن تتدخل مصر لاستضافته لاجئا أو لتخفف عنه هذا التعسف غير المبرر من العسكريين.

وفاته

وسرعان ما توفى الزعيم إسماعيل الأزهري في أغسطس ١٩٦٩ دون أن يجامله النظام الناصري بكلمة واحدة في التأبين فضلا عما فشل فيه عن عمد من إنقاذه من السجن والمهانة على يد مجموعة الرئيس جعفر النميري التي كانت في بدايتها يسارية الطابع.

* * *

٤
الفريق إبراهيم عبود
الرئيس الذي لم يعتقد في ألوهية شخصه

أبدأ بما أنا مغرم به من حوسبة التواريخ وتلقينه، فقد كان الرئيس السوداني الفريق إبراهيم عبود (١٩٠٠ ـ ١٩٨٣) من حيث هو ضابط قريبا في الميلاد والتخرج والكادر والوفاة والعمر من الرئيس المصري محمد نجيب (١٩٠١ ـ ١٩٨٤) فقد عاش كلاهما ٨٣عاما، وقد سبق الرفيق عبود الرئيس نجيب في الميلاد بأربعة أشهر وسبقه في الوفاة بعام إلا قليلا، وبينما عاش الفريق نجيب بين ١٩ فبراير ١٩٠١ و٢٨ أغسطس ١٩٨٤ فإن الفريق إبراهيم عبود ولد في ٢٦ أكتوبر ١٩٠٠ أي قبل محمد نجيب بأربعة أشهر (وليس عاما كاملا) وتوفي في ٩ سبتمبر ١٩٨٣ أي قبل الرئيس نجيب بأحد عشر شهرا وعشرين يوما.

الطريف من أمر التاريخ أن هذين الرئيسين الفريقين تخرجا في العام نفسه ١٩١٨ والسبب في هذا هو أن محمد نجيب تميز بالتفوق طيلة دراسته، مما جعل أساتذته يقفزون به في مراحل الدراسة، لكن ليس معنى هذا أن الفريق إبراهيم عبود كان متأخرا، وإنما كان متفوقا جدا ولكن ليس لدرجة محمد نجيب.

نشأته وتدرجه العسكري

ولد الفريق إبراهيم عبود في سواكن في قبيلة "الشاينية "، وأتم دراسته في التعليم المدني والتحق بكلية جوردون وتخرج فيها ١٩١٧ في شعبة الهندسة ثم تخرج في المدرسة الحربية ١٩١٨ وبهذا أصبح في وضع يوازي المهندسين العسكريين، وأصبح بهذا ضابطا في الجيش المصري فلم يكن الجيش السوداني قد تشكل بعد.

بدأ الفريق إبراهيم عبود خدمته في قسم الأشغال العسكرية فلما وقع حادث مقتل السير لي ستاك سردار الجيش المصري في السودان ١٩٢٤ وسُحبت القوات المسلحة المصرية من السودان انضم إلى ما كان يسمى قوة دفاع السودان وعمل في فرقة البيادة، وفرقة العرب الشرقية.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية خدم الفريق إبراهيم عبود مع الجيش البريطاني في أرتيريا وأثيوبيا وشمال أفريقيا. وفي نهاية الأربعينيات عين قومندانا لسلاح خدمة السودان، بالموازاة مع إتمام خطوة سودنة مناصب هذا السلاح.

صعوده العسكري

نال الفريق إبراهيم عبود رتبة الأميرالاي في ١٩٥١ وأصبح أركان حرب قوة الدفاع ثم عين نائبا للقائد العام في ١٩٥٤ وكان هذا القائد هو أحمد محمد، الذي خلفه الفريق إبراهيم عبود ليكون ثاني قائد عام للقوات المسلحة السودانية، على نحو ما أصبح فيما بعد ثاني من تولى مهمة رياسة السودان.

وعندما وصلت الخلافات بين الأحزاب السودانية إلى نقطة ظنوها مستعصية على العلاج رأى بعض الفرقاء أن الانقلاب العسكري يمكن أن يحل مشكلة التناحر ولو إلى حين، وكان رئيس الوزراء عبد الله خليل نفسه مع هذا الرأي حتى أنه هو الذي سلم السلطة للفريق إبراهيم عبود لا بصفته بديلا له، ولكن بصفته قائدا للانقلاب العسكري..

كتالوج الانقلابات العسكرية

وهكذا كان على الفريق إبراهيم عبود أن يطبق كتالوجات الانقلابات العسكرية المتاحة في المنطقة العربية وأمريكا اللاتينية وكانت خطوات هذه الانقلابات تشمل: إيقاف العمل بالدستور، وحل البرلمان، وتقييد نشاط الأحزاب السياسية أو إلغاء هذه الأحزاب.. أو بالمصطلح المختصر إلغاء مظاهر وآليات الحياة الديموقراطية.

الاتفاق على الانقلاب

كان زعيما الطائفتين الدينيتين اللتين تمارسان السياسة السودانية في ذلك الوقت وهما: عبد الرحمن المهدي (زعيم المهدية) وعلي الميرغني (زعيم الختمية) قد رأيا أن يوافقا على خطوة الانقلاب العسكري لما كانا يريانه من قدرة الفريق إبراهيم عبود وشخصيته وامتلاكه لناصية مؤسسة قادرة على الحسم وضبط الأمور.

لكن الكوادر السياسية من أبناء الطائفتين (المهدية) و(الختمية) وحزبيهما لم تكن من هذا الرأي على إطلاقه.

وهكذا فإن الصديق المهدي زعيم حزب الأمة ورئيسه قاد بنفسه المعارضة السياسية للانقلاب العسكري، بادئا بهذه الخطوة الشجاعة تعبيرا حيا وحيويا عن قدرة الأحزاب السياسية على ممارسة المعارضة الحقيقية على الرغم من العقيدة التي لا

يزال يروج لها الغرب بكثافة سيطرة المؤسسة الصوفية أو الدينية التي تظلل وجود هذه الأحزاب وتبرره.

عقب الانقلاب وتولي السلطة تلقب الفريق إبراهيم عبود بلقب رئيس المجلس الأعلى من ١٨ نوفمبر ١٩٥٨ وحتى نهاية أكتوبر ١٩٦٤ ثم تلقب بلقب رئيس الجمهورية من ٣١ أكتوبر ١٩٦٤ وحتى ترك المنصب في ١٦ نوفمبر ١٩٦٤.

وبهذا كان الفريق إبراهيم عبود أول من تلقب بلقب رئيس الجمهورية في السودان مع أنه ثاني رؤساء السودان ذلك أن الرئيس السوداني الأول إسماعيل الأزهري (١٩٥٦-١٩٥٨) كان يتلقب بلقب رئيس مجلس السيادة.

الانقلابات العسكرية السودانية

من المهم هنا أن نشير إلى أن انقلاب الفريق إبراهيم عبود لم يكن أول الانقلابات السودانية بعد الاستقلال عام ١٩٥٦ فقد شهدت السودان انقلاباً فاشلاً قاده إسماعيل كبيدا ضد إسماعيل الأزهري عام ١٩٥٧، تلاه انقلاب الفريق إبراهيم عبود عام ١٩٥٨.

وقد واجه الفريق إبراهيم عبود محاولتي انقلاب، الأولى قام بها أحمد عبد الوهاب، وتمّ على إثرها ضمه للحكومة القائمة بطريقة ذكية تنم عن أخلاق السودانيين، والثانية نفذها الرشيد الطاهر حدوث ثورة شعبية في أكتوبر ١٩٦٤.

أما الرئيس جعفر النميري الذي قام بانقلابه في مايو١٩٦٩، فواجه ثلاثة انقلابات فاشلة قادها كل من: هاشم العطا عام ١٩٧١، وحسن حسين عام ١٩٧٥، ومحمد نور عام ١٩٧٦، وذلك قبل اندلاع الثورة الشعبية في عام ١٩٨٥، والتي تولى الفريق عبد الرحمن سوار الذهب الحكم على إثرها.

القلق الغربي من استقامة عبود

كان الفريق إبراهيم عبود رجلا وطنيا إلى حد كبير، وهكذا فإنه لم يلق قبول الحكومات الخفية أو العميقة في المحيط الغربي الذي كان يراه بعيدا عن التعسف والشراسة مع الشعب، وغير محبذ للاستخدام المفرط للعنف، وغير محب لموالاة الغرب موالاة مطلقة.

كان افتقاد الفريق عبود لهذه الصفات السلطوية القاسية سببا في نفور مؤسسات الاستعمار الجديد منه من دون أن يصرحوا بهذا بوضوح.

كان العقل الغربي المتربص قلقا مما رآه في الفريق إبراهيم عبود من ميل بعيد المدى إلى النجاح بسبب استقامته، وأبدى الأمريكان دهشتهم من أن تكون موازنة السودان في عهده منضبطة لا تعرف العجز والالتجاء إلى الديون على نحو ما كان قد بدأ يحدث مع أقرانه العسكريين في الدول المجاورة.

بل إن الفريق إبراهيم عبود أعرب بكل نبل عن أمله في أن يحل مشكلة جنوب السودان التي كان الأمريكان قد بدأوا يذكون نارها وبدأ في بذل جهود صادقة من أجل الوحدة الوطنية والتعريب، والتعليم ونشر تعاليم الدين الإسلامي وهو ما كان يتعارض بالطبع مع السياسات الأمريكية الخفية التي كنت تحرص على النقيض من خلال تنشيط بعثات التبشير وجهودها المحمومة في نشر الحرب الأهلية.

جمع الفريق إبراهيم عبود رئاسة الوزارة مع قيادة الدولة (أو رئاسة الجمهورية) ذلك طيلة فترة حكمه وحتى أكتوبر ١٩٦٤ حين تصاعدت الثورة ضد نظامه فرحب بتسليم السلطة طواعية للمدنيين. وقد بقي الفريق إبراهيم عبود بعيدا عن السلطة ١٩ عاما حتى توفي في ١٩٨٣.

الأداء النزيه لم يشفع له

عُرف الفريق إبراهيم عبود بنزاهته الشديدة حتى أنه رفض أن يكون له بيت صغير يليق بمكانته، فلما عرضوا عليه أن يُقيم في مسكن حكومي طيلة حياته على أن يكون هذا من حق من يخلفونه في هذا المنصب رفض أيضا.

وقد أورد العقيد المحجوب نور تفصيلات هذه الواقعة عن السيد مبارك رزوق المحامي الذي كان وزيرا للمالية والذي كان يُفاخر دوما بأن عبود يفوق في أخلاقه غاندي ولينكولن وديجول وتشرشل وسعد زغلول.

ولهذا السبب أو لهذه الأسباب مجتمعة ومتبلورة فإن السودانيين لما رأوا الفريق إبراهيم عبود وهو يتسوق بعد تركه الرئاسة هتفوا له: "ضيعناك وضعنا وراك يا عبود".

ومن الطريف الذي لا بد من ذكره أن الجنيه السوداني في عهده كان يساوي ٣. ٣

دولار بما يعني أن العشرة دولارات أمريكية كانت تساوي ثلاث جنيهات سودانية فقط، وهو نفس سعر الصرف الذي تحدد للدينار الكويتي.

المعونة الأمريكية

من الطريف أيضا أن حكومة الفريق إبراهيم عبود قبلت المعونة الحكومية الأمريكية التي كان الحزب الاتحادي الديمقراطي يعارض في قبولها ويزايد بهذا الموقف على حكومة عبد الله خليل.

تحسين العلاقات السودانية مع المصريين

كان وصول الفريق إبراهيم عبود للحكم فرصة لتحسين العلاقات السودانية مع العسكريين المصريين وكانت هذه العلاقات قد تدهورت فعليا وإعلاميا بسبب الخلاف على حلايب وعلى بناء السد العالي.

وفي عهد الفريق إبراهيم عبود وبجهده تكمن من زيادة حصة السودان من ماء النيل مقابل قبوله بإنشاء السد العالي. وقد قبلت مصر أن توافق على أكثر مما كانت حكومة عبد الله خليل تطالب به، نظرا لنفور عبد الناصر من وجود المدنيين في السلطة في بلد شقيق مجاور أو اشتراكهم في المفاوضات معه.

وفي عهد الفريق إبراهيم عبود بدا العمل في سدين جديدين على النيل، ووصلت الأرض المزروعة من السودان إلى أكثر من مليوني فدان، وبدأ مشروع كبير سمي "المناقل" لإعداد الأراضي السودانية للزراعة.

سياسته الخارجية

عُرف الفريق إبراهيم عبود كذلك بالاحترام والشجاعة والتقدير في المجتمع الدولي، حتى أنه كان من أوائل الرؤساء الذين اعترفوا بالصين الشعبية في وقت تراخى فيه اعتراف أصحاب الصوت العالي.

وكان الفريق إبراهيم عبود يحظى بصفة خاصة باحترام الرئيس الأمريكي كيندي وكان من حظهما أن تمت زيارة الفريق إبراهيم عبود للرئيس كيندي، وعلى غير ما هو شائع في البروتوكول فإن الرئيس الأمريكي استقبل الفريق إبراهيم عبود على سلم الطائرة عند قدومه لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية.

كذلك حظي الفريق عبود بتكريم مماثل من الملكة إليزابيث الثانية، ويبدو أن هذا كان رد فعل طبيعيا تجاه الروح العدائية التي انتهجها الإعلام الناصري تجاه الزعماء الغربيين.

سجله المشرف فيما يتعلق بحقوق الإنسان

خرج الفريق إبراهيم عبود من الحكم بسجل مشرف بل نظيف فيما يتعلق بحقوق الإنسان، وكان سلوكه هذا مزعجا للزعماء العرب من حوله، لكنه لم يفرط فيه، بيد أنه بطابع العسكريين لم يكن قادرا على أن يدير عملية ديموقراطية تتداول فيها السلطة..

وإذا كان السودانيون المعاصرون يكثرون من مدح الفريق سوار الذهب، فإن المخضرمين منهم يكثرون أيضا عن حق من مديح الفريق إبراهيم عبود، الذي كان صاحب أول انقلاب عسكري (إنساني) في السودان.

ومن العجيب أنه عاش بعد أن شهد الإهانات توجه لزعماء المهدية والختمية وتوجه للزعيمين الكبيرين الأزهري ومحمد أحمد المحجوب اللذين توفيا قبله وهما يعانيان الكمد والجحود والإهانة.

* * *

٥
الرئيس البشير
وثلاثون عاماً من مجاملة أمريكا بلا مقابل

كان الرئيس عمر البشير سياسياً مخضرما وكان من أبرز القادرين على المواءمة التي تتصاعد حتى تصل إلى درجة الارتحال بالمواقف، وكان حريصاً على توازن نفسي وسياسي من نوع مُعجز، وبفضل هاتين القُدرتين فإنه استطاع أن يُحقّق كثيراً من النجاح الذي مكّنه من البقاء في مقعد الصدارة ثلاثين عاماً لم تُتح لأيّ رئيس سوداني قبله، بما في ذلك الرئيس القوي جعفر النميري الذي لم يدُم عهده إلا ١٦ عاماً واجه فيها من المصاعب ما يُعتبرُ هيّناً بالمُقارنة مع المصاعب التي واجهت الرئيس البشير الذي صادف ما يمكن وصفه بلا مبالغة بأنه نطاقات متوالية من التحدّيات الدولية والإقليمية المفروضة بقسوة غير معهودة مع الرؤساء الأفارقة.

ومع أن إحالة الرئيس عمر البشير للمحكمة الجنائية الدولية تبدو في نظر المُتابعين وكأنها أصعب المواقف التي قابلته، فإن الدارس للتاريخ يُدرك أنه واجه ما هو أكثر من هذا صعوبة في لحظات حاسمة لم تكن توفر له ما توفره له الإحالة إلى محكمة من فرص، وذلك بما تتيحه فكرة الإحالة من الوقت والإعداد والمُساومات.

لا يفوقه إلا الرئيس جمال عبد الناصر

ومن الحق أن نُشير إلى أن الرئيس البشير أفاد أمريكا بما لم يُفدها به نظراؤه، وأنه لا يفوقه إلا الرئيس جمال عبد الناصر الذي حقّق لأمريكا كثيراً من أهدافها (سواء في ذلك عن معرفة واعية وبتقاطع في المصالح أو بغير هذه المعرفة الواعية وبغير التقاطع في المصالح).

وباستثناء الرئيس عبد الناصر فإن أحداً من الزعماء العرب والأفارقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم يُحقّق للولايات المتحدة الأمريكية ما حقّقه الرئيس البشير، وعلى طريقة البسطاء في فهم الحقائق الاستراتيجية، فإن الرئيس عبد الناصر أسعد أمريكا بقسمة مصر والسودان وبعد ٤٥ عاما أسعدها الرئيس البشير بقسمة السودان نفسه، ولم يكن للقرارين هدف حقيقي إلا الحرب على الإسلام التي انتهت بتجزئة أكبر وأهم دولة إسلامية وجدت منذ إلغاء الخلافة الإسلامية، وذلك على الرغم من أن كلا منهما لم يكن ينتوي هذا، ولم يكن أحدهما يتصوّرُ أن يكون هو نفسه الشخص الذي سيستجيب لهذه الضغوط الأمريكية.

موقفه من الجماعات المضطهدة يُعد موقفاً مُشرّفاً وشجاعاً

ومع أن موقف الرئيس البشير النبيل والأصيل من الذين لجأوا إليه من الجماعات المضطهدة في البلاد العربية والإفريقية يُعد موقفاً مُشرّفاً وشجاعاً وفريداً، ومع أن هذا الموقف لا يزال يُذكر فيُشكر، فإن مواقفه الأخرى التي ساند بها السياسات الأمريكية كانت أكثر إفادة للأمريكيين بأكثر مما كانت سياساته النبيلة مُفيدة للمُضطهدين.

وحين يكتب تاريخ الصراع الأمريكي منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى الآن، فإن اسم المشير عمر البشير يأتي بحق في أول قائمة المُتفضّلين بسخاء على الولايات المتحدة الأمريكية وأمنها القومي على نحو ما تتصوره إدارتها، بل إنه يتصدّرُ هذه القائمة بلا جدال.

وأظن أن هذا لا يحتاج إلى كثير من الإثبات أو التحليل فحقائقه ذائعة بفضل الاهتمام الإعلامي المُكثّف، كما أن تطوراته معروفة وكفيلة بنسبة كل فعل مؤثر إلى صاحبه. ومع أن فضل البشير في فصل جنوب السودان يسبق في خطورته وأهميته موقفه المساند للعمليات الأمريكية المواجهة للإسلام السياسي، فإن اجتماع الموقفين في رصيد زعيم واحد يمثل موقفا معجزا ونادرا، فما بالنا بأن الرئيس البشير لم يكتف بهذين العطاءين وأن الأمريكيين لم يكتفوا بهذين الاستنزافين.

كان قادراً على أن يحصل على نوبل للسلام

وإذ جاز لي أن ألخص حجم المجاملة التي قدمها الرئيس البشير للأمريكيين، فيكفيني أن أقول إنه كان قادراً على أن يحصل على نوبل للسلام قبل أن يوقع الاتفاق النهائي لفصل الجنوب وتحقيق هذه الأمنية الأمريكية الغالية، وهي أمنية يبلُغُ عمرها أكثر من مائة عام بالتمام والكمال، لكن الرئيس البشير لم يكن حتى نهاية عهده قد أجاد مهارات المساومات الدولية حين وافق من باب المجاملة غير المقومة بما تستحقه من المكافأة الأدبية والمادية معاً.

فصل دارفور

تأتي المجاملة الثالثة التي قدمها الرئيس البشير للولايات المتحدة الأمريكية

متمثلة في سعيه الدؤوب وغير الواعي إلى فصل دارفور من خلال معارك كانت كفيلة بدفع أهل دارفور إلى الانفصال.

ومن العجيب الذي يفهمه الساسة بسهولة (ولا يتصوره العقل المنطقي إلا بصعوبة) أن العقوبات الدولية فُرضت على البشير لأنه تهاون في الإجرام في حق دارفور، ولو أنه كان قد وصل بالإجرام إلى حدود ستالين لكن قد صُوّر بطلاً، ومُنح التقدير الدولي المتضاعف والدعم المعنوي وإسقاط الديون، لكنه التزم بحدود، ولهذا كان لا بد أن يُعاقب، وكان عقابه أن يُصوّر على أنه مجرم، مع أنه كان مطلوباً منه أن يكون مُجرماً إلى أقصى حد. ومرة أخرى فإني واثق أن الذين يقرأون هذا الملف جيداً سيُدركون هذه الحقيقة، أما الذين يستسهلون تصديق الصور المُعلّبة، فإنهم سوف يتعجبون فحسب.

الاعتراف الإفريقي بالانقلاب العسكري

المجاملة الرابعة التي قدمها الرئيس البشير لأمريكا كانت سعيه المُكثف من أجل الاعتراف الإفريقي بالانقلاب العسكري في مصر، على الرغم من قرار الاتحاد الإفريقي المُبكر والواضح باستنكار الإنقلاب وعدم الاعتراف به، وكان الأوروبيون هم أول من صرحوا بأن الأمريكيين يُلحّون عليهم في أن يُلحوا على الأفارقة من أجل إلغاء قرارهم بعدم الاعتراف بالانقلاب، بما يعني الاعتراف به.

وكان الأوروبيون أيضاً هم من صرّحوا للمصريين بأن كل جهودهم لقيت الفتور والرفض من الإتحاد الإفريقي إلى أن تدخّل البشير بكل ثقله باعتباره الجار اللصيق لمصر، بل باعتباره هو نفسه كان مصرياً حين الولادة فلم يكن السودان قد انفصل بعد (على نحو ما حدث في أول يناير ١٩٥٦ بعد مولده).

ومع أن الرئيس البشير كان قد تلقى وعداً صريحاً بأن المقابل لهذا الجهد هو أن يُرفع اسمه من قائمة العقوبات الدولية، فإن ما حدث لم يكن هو تنفيذ الوعد، وإنما كان البدء بتخفيف بعض إجراءات المقاطعة.

وعد لم يتحقّق

وجد نفسه الرئيس البشير أمام وعد لم يتحقّق بعد أن كان هو قد وفّى بما كان

مطلوباً منه، ولو أنه كان اشترط أن ينال المقابل قبل ان يبذل الجهد لكانت العقوبات قد رُفعت في أقل من ٢٤ ساعة، لكنه فقد ما يستحق ممّا كان قد وُعد به، وبدلا من أن يكون حاصلا على نوبل في السلام فإنه بقي مطلوباً للمحكمة الجنائية الدولية.. وكان الفارق السببي بين الحالتين هو نفسه الفارق بين القدرة على التفاوض والمساومة وبين غياب هذه القدرة.

زيارته للرئيس بشار

كانت المجاملة قبل الأخيرة التي قدّمها الرئيس البشير هي زيارته للرئيس بشار، وكانت مُجاملة قاتلة، حيث تطوع ببطولة الاستطلاع المُبكرة، لكنه كان سيء الحظ بصورة لم يتصورها في أفظع كوابيسه، فقد وجد نفسه أمام إعصار من الرفض الذي لم يكن مُتوقعاً على هذا النحو، وإذا به يتحمّلُ وحده نتيجة هذه الزيارة التي قام بها بالنيابة عن أقرانه الذين ترجّوْهُ في القيام بها، وبالنيابة عمّن يدعمُ بشار في المقام الأول وهو الولايات المتحدة الأمريكية التي تدعم بقاءه واستقراره من أجل بقاء وازدهار إسرائيل.

فشله في تسويق تاريخه

أما المجاملة الأخيرة التي قدّمها الرئيس البشير فكانت معالجته "الصامتة عن المناورات الامريكية في توظيفها للمظاهرات التي أنهت عهده، ومع أن الفرصة كانت مُتاحة أمامه ليتحصّل على حقوقه القديمة والجديدة مرة واحدة إذا واجه أمريكا بأدلته، فإنه ظن أن السلوك المُهذب أقوم سبيلا، ومع أنه كان قادراً بخطابته وعصاه وإقناعه وجدله على أن يُسوّق وتاريخه على حساب سُمعة سياسات الولايات المتحدة الأمريكية نفسها في لحظة تدنّي هذه السُمعة، فإنه فيما يبدو لم يدرُس تاريخ الرئيس عبد الناصر العسكري والسياسي بالدرجة الكافية لسياسي مثله، ولو أنه فعل لحفر لنفسه مكاناً في سجل المقاومين أو المُمانعين. ولو أنه تأمل فيما حصُل عليه من هم في مقام تلاميذه من دعم وقروض وتمجيد وحماية وتلميع لعرف أنه جامل كثيراً وكثيرا جدا بلا مقابل.

الباب الثاني: الجزائر

٦
هواري بومدين
البحث عن الأسطورة في زمن الواقعية

كان الرئيس هواري بومدين (١٩٣٢ ـ ١٩٧٨) أقرب الساسة العرب المعاصرين إلى فكرة البحث عن الأسطورة في زمن الواقعية، ذلك أنه كان طموحا إلى أقصى حد إلى إعادة مجد قادة الإسلام الأوائل الذين يلتزمون الأخلاق الرفيعة من الشرف والكرامة والعدل والمساواة والأمانة والتجرد والفداء والولاء والتواضع والعمل الدؤوب من دون أن يدرك أن العصر الحاضر يتطلب أخلاقا أخرى بالإضافة إلى هذه الأخلاق، وهكذا فإننا من دون التعالي على هذه الشخصية العظيمة نستطيع أن نقول إنه لم يخطئ فيما فعل لكنه أخطأ فيما لم يفعل.

وبهذه الجملة البسيطة يُمكن لنا إدراك كثير من الحقائق في مسيرة السنوات الثلاث عشرة التي حكم هواري بومدين الجزائر فيها ما بين يونيو ١٩٦٥ وديسمبر ١٩٧٨.

الداعم الحقيقي الأول للشعب الفلسطيني

نبدأ بأمجاد الرئيس هواري بومدين التي لم تأخذ حقها من التكريم، فنذكر على سبيل التمجيد والاعتراف والإنصاف للحقيقة أن الرئيس هواري بومدين كان الداعم الحقيقي الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية وكفاح الشعب الفلسطيني، وربما يتعجب القارئ لهذا الحكم القاطع لكنه الحقيقة، ف الرئيس هواري بومدين هو من احتضن الكفاح الفلسطيني المسلح قبل بدايته وعند بدايته وبعد بدايته وحتى وفاته، ولم يبخل الرئيس هواري بومدين بأي دعم على الثوار الفلسطينيين.. بيد أن هواري بومدين بحكم السمة والخبرة وآفاق المعرفة السياسية لم يكن يُدرك حقيقة ما كان يجب عليه أن يفعله لهؤلاء الثوار الفلسطينيين وهي أن يُنقذهم من الآخرين الذين كان قد بدأ يحس (ولا نقول يعلم) أنهم هم الجحيم المُستتر.

ولو أن الرئيس هواري بومدين فهم حقيقة الصراع العربي الإسرائيلي، فهما حقيقيا بعيدا عن الشعارات الرنانة والتفاهمات الخفية التي لم يكن من الصعب عليه أن يُدركها ببذل مزيد من الجُهد في قراءة الأحداث، لتغيرت وجهة هذا الصراع، وتحررت فلسطين كلها قبل نهاية الستينات..

لكن الرئيس هواري بومدين (المولود ١٩٣٢) كان يعيش العصر الذي يرى فيه

حجم المكانة المُتقدمة التي أحرزها الرئيس جمال عبد الناصر (المولود ١٩١٨ والموجود في السلطة منذ ١٩٥٢) ولم يكن يتصور أنه هو نفسه أصدق نية من الرئيس عبد الناصر وأكثر قُدرة.. وعلى هذا النحو كان الرئيس هواري بومدين شبيها إلى حد كبير بالطبيب الكفء الماهر القادر على أفضل إنجاز جراحي لكنه بحكم التراتبية يترك القيادة في حجرة العمليات للطبيب الأقدم منه دون أن يُدرك أنه بموقفه هذا الملتزم بالأصول يُؤذي المريض ويُضيّع حياته.

كان الرئيس هواري بومدين يُقدم الدعم الصادق لفلسطين ويتأخر عن الدور المتقدم في توجيه الثورة الفلسطينية، وهكذا فإن الدور الجزائري في الثورة الفلسطينية لم يُؤت من الثمار ما يتناسب مع حجمه الكبير الذي لم تصل إليه أية دولة عربية.

والواقع أن الرئيس هواري بومدين عاش ومات دون أن تُتاح له فرصة التأمل العميق في الواقع العربي والإسلامي الذي وجد نفسه يعيش فيه مع كل ما في هذا الواقع من تناقضات لم يستطع الرئيس هواري بومدين أن يستوعبها بحكم قلة الوقت أو قصر الوقت الذي أُتيح له في معالجة ومتابعة هذه القضايا.

فإذا نحن أضفنا إلى هذا حقيقة أخرى، وهي أن الرئيس بومدين عاش في بداية حياته السياسية مرحلة واضحة الرؤية في العداوات والصداقة جعلته لا يُدرك أن هناك أعداء متعددين وإنما هو عدو واحد هو وواحد فقط وهو الاستعمار، أقصد أن أشير إلى أنه لم ينشأ كالمصريين أو السوريين في مجتمعات تشهد اختلاف الأحزاب واختلاف رؤيتها وتناقض مواقفها وتبدل تحالفاتها، وتشهد أيضا دلائل متعددة لمعارك الانحياز والتعصب والتخوين والتسفيه.. لهذا السبب فقد كان الرئيس هواري بومدين يُعالج الحياة الدائرية بخطوط مُستقيمة لا تستطيع بحكم استقامتها أن تمارس الدوران مع المُحيط، وإنما هي قادرة فقط على تحقيق نجاحات خطية، وتعجز بحكم براءة الأفق السياسي نوعا ما عن أن تجعل صاحبها يُدرك جوهر النجاح المطلوب للعصر الذي هو فيه.

موقفه في مرحلة وفاة الرئيس عبد الناصر

ربما كان من الواجب أن نتجه الآن بالحديث عن إنجاز الرئيس هواري بومدين في

الاتجاه العروبي، لنذكر مثلا سريعا عن قُدرته السياسية التي لم تتجاوز آفاق الأخلاق الكريمة والممارسات البسيطة، وسوف نبدأ بأن نضرب مثلا سريعا للمقارنة يكشف عما كان يُمكن للرئيس هواري بومدين أن يحققه، وما لم ينتبه إلى تحقيقه.

نحن نعلم أن الرئيس عبد الناصر توفي في نهاية مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في مواجهة أحداث سبتمبر ١٩٧٠ حين اندلع الاختلاف واندفع الصراع بين الحكومة الأردنية والقوات الفلسطينية التي كانت تصور على أنها بطبعها متجهزة لتحرير فلسطين..

ونحن نعرف أيضا أن الموقف في ذلك النزاع كان ملتبسا تماما أو بعبارة أخرى فقد كان باطنه غيرُ ظاهره، نحن نعرف الآن ما لم يكن الرئيس هواري بومدين نفسُه يعرفه في ذلك الوقت من التواطؤ العربي ضد الكفاح الفلسطيني، والذي تكرّس في نهاية ذلك المؤتمر (الذي شهد نهاية عبد الناصر) بأن خرجت المقاومة الفلسطينية من الأردن، أي من جبهة مواجهة مباشرة مع الكيان الصهيوني عبر ما يسمى بجبهة الأردن.. وهو ما لم يكن يخدم أحدا إلا الكيان الإسرائيلي.. وفي الوقت نفسه فإن القيادة العسكرية السورية (التي نسب إليها التواطؤ في هذه المعركة بأن تأخرت عن نجدة الفلسطينيين رغم القرار السياسي السوري بنجدتهم) سرعان ما أتمت توجهها أو تخاذلها بأن استولت على السلطة في سوريا وأبعدت الراديكاليين..

حدثت كل هذه المآسي أمام عيني الرئيس هواري بومدين دون أن يتجاوز دوره المهذب إلى دور فاعل، وكأنه ليس الثوري الحقيقي المنتصر وسط كل هؤلاء الرؤساء والملوك وكأنه ليس الرئيس الذي يحكم (منذ خمس سنوات كاملة) أقوى دولة عربية في ذلك الوقت.. صحيح أن هواري بومدين كان متجردا لكن الموقف كان يتطلب منه أن يكون متدخلا لا متجردا.. كان الموقف يتطلب منه أن يجرد سلاحه الاستراتيجي (حربا وسلاما وتفاوضا وفرضا) لا أن يتجرد من قوته البازغة.

مقارنته بالرئيس جعفر النميري

قارن هذا الموقف المتجرد للرئيس هواري بومدين بموقف رئيس حديث في الرئاسة لم يتجاوز عمره فيها ١٦ شهرا وفي بلد يُعاني من مشكلات التمويل والاقتصاد

وهو الرئيس جعفر النميري تجد الرئيس جعفر لنميري حريصا على أن يلعب أدوارا أكبر مما كانت ظروفه تتيح فرصتها أو تبيحها أو تفرضها، لكنه مع هذا أخذ الموقف الذي يقول ويتحرك ويتوسط ويعد ويضمن.. الخ

بل إن الأمر وصل في حدود فرض الذات إلى حد أن الرئيس جعفر النميري عاد من السودان إلى القاهرة بعد وفاة عبد الناصر للمشاركة في تشييع جنازته، فلما رأى وميض النار تحت الرماد فيما يتعلق بمستقبل الرئاسة في مصر، أعلن للمصريين أنه لن يُغادر مصر إلا إذا أصبح لها رئيس مُنتخب، رئيس واحد وليس قيادة جماعية أو ما شابه ذلك من الحلول القاتلة التي تُمهد لحركات الانقلاب والانقلاب المُضاد والصراع الكفيل بضياع كل شيء.

إذا ما نظرت إلى التاريخ من هذه الشرفة المعاصرة التي تتأمل في الأدوار المختلفة وتتأمل في اختيار أبطال المسرحية لأدوارهم وتتأمل في السيناريوهات المختلفة أو النصوص المتعددة التي يُمكن أن تفرض نفسها على الواقع، فإنك تستطيع أن تدرك المساحة التي تركها هواري بومدين من دون اهتمام بينما كان عليه أن يشغلها.

تستطيع أن تقول إن الرئيس هواري بومدين لم يشهد في شبابه مثل الرئيس جعفر النميري صالون العقاد ولا ونسه من ونسات السودانيين في ساعات السمر، ومن ثم فإن تربيته السياسية أو وعيه التاريخي كانا أقرب إلى الطهارة منهما إلى الممارسة، نعم باستطاعتك أن تقول هذا لكن باستطاعتك أن تُدرك أن الرئيس النميري بحجم من الإخلاص لا يزيد عن إخلاص الرئيس بومدين، وبمساحة من القوة لا تزيد عن مساحة قوة الرئيس بومدين كان قادرا على أن يُنجز أكثر بكثير من إنجاز الرئيس بومدين.

دوره في حرب أكتوبر

ربما أنتقل بك إلى مرحلة من أكثر مراحل التاريخ العربي مجدا وزهوا وجهادا وعزا وهي مرحلة حرب أكتوبر ١٩٧٣، فإذا أنت أمام أكثر الناس إخلاصا لحرب أكتوبر، وهو الرئيس هواري بومدين، وإذا أنت مبهور من مُشاركة العسكريين الجزائريين الأفذاذ بأنفسهم في الحرب حتى إن شارون نفسه أُصيب على يد الجنود الجزائريين،

وإذا أنت مبهور بموقف الرئيس هواري بومدين مع القادة السوفييت الذين كانوا يستحبون ويستعذبون التقصير في إمداد مصر بالسلاح فإذا به يعطي لهم الحساب الدولاري المفتوح ليسيل لُعابهم للدولار ليُزودوا مصر بالدبابات عوضا عما فقدته في حرب أكتوبر.

تتأمل كل هذا العطاء والإخلاص ثم تجد نفسك وأنت مذهول من أن يتأخر الرئيس بومدين عن الوقوف في الصف الأول لاتخاذ القرار العربي من حرب أكتوبر، وإذا هو بعيد تماما عن التحضير للحرب، وعن الاشتراك مع السادات والأسد في التجهيز النهائي لها، بينما تجد دور متقدما لأخ أصغر له هو الرئيس معمر القذافي الذي كان يصغره بعشر سنوات كاملة والذي لم يصل إلى الرئاسة إلا بعده بأربع سنوات، لكنه مع هذا كان حريصا على أي طرف من اطراف قيادة مثل هذه المعركة المجيدة، حتى لو من شرفة الناقد المسرحي أو المعلق الرياضي وهو ما اقتصر دوره في النهاية عليه، خوفا من تهوراته.. مع أن الموارد الاستراتيجية المُتاحة للوطن العظيم الذي كان يحكمه الرئيس هواري بومدين كانت أضعاف موارد الرئيس القذافي لكن علو صوت القذافي كان ملحوظا، وكأنه أعلى بأكثر من الرئيس بومدين، أو كأنه كان قادرا على العطاء بأكثر من ب الرئيس ومدين بينما أن الحقيقة التي لم تكتمل صورتها في حينها كانت تتلخص في أن الرئيس القذافي كان مُعوقا للمسيرة، ومُشتتا للجهد على حين كان الرئيس هواري بومدين داعما ومخلصا إلى أبعد الحدود.

على هذا النحو كان الرئيس بومدين يُقدم الإخلاص دون أن يُعنى بما هو أهم من الإخلاص وهو حماية الإخلاص نفسه، وهكذا فإننا لا نصادف للرئيس بومدين وجودا يتناسب مع مكانته فيما تلا حرب أكتوبر من مفاوضات سياسية واستراتيجية.. لا نجد له أثرا ولا تأثيرا، وكأنه لم يكن من المشتركين ولا من المنتصرين ولا من الظافرين، وإنما نراه قد اعتصم بتواضعه وتجرده وترك الرؤساء الأسد وصدام والقذافي وغيرهم يُمارسون سياسات لا تخلو من المراهقة والطيش حتى إذا أزفت الآزفة وجدت الجزائر نفسها في مربع هؤلاء الرؤساء الذين توقفوا وآثروا الرفض بينما كان من المفترض أن موقعه الحقيقي أكبر من هذا بكثير.

القيادة المصرية لم تشركه كما ينبغي

ليس من شك في أن جزءا كبيرا من أسباب اللوم الذي يُوجه إلى الرئيس هواري بومدين يعود على الرئيس أنور السادات والقيادة المصرية التي لم تبذل جهدها في تنوير الرئيس بومدين وإشراكه في كل شيء على نحو هادئ، كان يتطلب حوارا فكريا كان من الممكن يقوم به من يأنس إليه الرئيس هواري بومدين نفسه من المفكرين المصريين، لكن سخونة المعركة السياسية وتدافع أحداثها لم يكن يُتيح لمصر ولا للرئيس السادات هذا الانتباه..

وهنا نجد أنفسنا نكتشف الخطورة القاتلة لغياب الممارسة السياسية الحزبية القادرة على أن تفتح الحوار مع الأشقاء.. وهو ما كان مُتاحا في عهد الليبيرالية حين كان زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا ومعه أنصاره ومُنافسوه ومعارضوه جميعا يشجعون وجود مكتب المغرب العربي بشيوخه وشبابه، ويتيحون لهؤلاء الشباب الثائرين من تونس والمغرب والجزائر وغيرها أن يتصلوا اتصالا سلسا وآمنا بأقطاب السياسة المصرية، وبآراء السياسة وخبرائها، وأن يعرفوا الفارق بين الوفديين والسعديين وبين الشيوعية والاشتراكية، وبين الإخوان المسلمين والشبان المسلمين وبين حدتو وشقيقاتها حستو وحمدتو وغيرها.

توتر علاقته مع مصر

ومن المثير للأسى والشفقة على مستقبلنا العربي أن الرئيس هواري بومدين نفسه الذي جاء مصر سيرا على الأقدام قد شهد في بداية حياته هذه القاهرة المائجة بالحياة والحرية والحيوية فلما وصل إلى الرئاسة لم يعة يجد في مصر وقاهرتها الحبيبة إلا شمولية مقيتة جعلت الصحيفة الرسمية الأولى وهي الأهرام تُصوره في أول أيام رئاسته ووصوله إلى السلطة قد فشل في محاولة الانقلاب على الرئيس أحمد بن بيلا بينما كانت الحقيقة أنه هو وجماعته قد استولوا بالفعل على مقدرات الأمور ومقاليد الحكم.

أذكر أنني قصصت في الفضائيات قصة وصول المشير عبد الحكيم عامر إلى الجزائر صبيحة استيلاء بومدين على السلطة، بينما كان الأهرام في نفس الصباح يصف

بومدين بالخيانة ويُبشر بالقبض عليه، وإذا بالرئيس هواري بومدين يُواجه عبد الحكيم بقوله: هل أتيت لتهنئة بن بيلا؟ على الخلاص مني وإعدامي.. ثم يقول له: لولا أنك عبد الحكيم لأعدمتك لأنك قادم للتهنئة على إعدامي!! بينما تقول الروايات الأخرى المناقضة: إن المشير عبد الحكيم الذي كان في ذلك الوقت يحتل في مصر الموقع المماثل بل المطابق لموقع الرئيس هواري بومدين في الجزائر مال على بومدين يسأله: كيف فعلها واستطاع التخلص من الحاكم الفرد الذي أتعب شعبه وأمته بفرديته.

ذكرت هاتين الروايتين المُعبرتين بأكثر مما أنهما صادقتان أو حقيقيتان لأصور طبيعة ما كان موجودا من الصراع السياسي الذي حسمه الرئيس بومدين بوصوله للسلطة.

الفارق بين الرئيس بومدين وبين الرئيس بن بيلا

من الواجب أن أشير في لمحة سريعة إلى الفارق بين الرئيس بومدين وبين الرئيس بن بيلا وهو فارق كبير جدا بحجم الفارق بين الشرق والغرب، على الرغم من أن أحدا لا يتصور الفارق هكذا.

كان الرئيس بن بيلا رغم كل ما هو معروف عن وطينته وكفاحه وثوريته فرنسيا تماما في تعليمه وفي خبرته، ولنذكر أنه كان جنديا فرنسيا ترقى في سلك العسكرية الفرنسية حتى إنه كان من الذين شاركوا في المعارك الأوروبية في الحرب العالمية الثانية، وكان من الذين تركوا مدينة باريس بعد أن نجح الألمان في الاستيلاء عليها أما بومدين الذي كان هو الآخر معرضا لنفس المصير فمن الطريف أنه بحكم نشأته الدينية القرآنية خطط حياته مبكرة على أن يتفادى القبول بتجنيد الفرنسيين له في جيشهم، وكان الفرنسيون يعتبرون الجزائريين فرنسيين لا بد من تجنيديهم لخدمة الإمبراطورية الفرنسية أو الجمهورية الفرنسية لكن الفارق بين الرئيس بومدين وبين الرئيس بن بيلا، هواري بومدين قاد زملائه إلى الهروب من الجزائر عبر تونس وليبيا إلى مصر وقاهرتها حتى لا يجد نفسه مجندا في الجيش الفرنسي.

دوره في تحرير الجزائر

أما مسيرة الرئيس هواري بومدين في تحرير الجزائر فنموذج مشرف للصمود

والصعود العسكري المتميز لقائد عقيدي وليس لقائد برجوازي من الذين يتخرجون في المدرسة العسكرية ليُمارسوا وظيفة بحدود الوظيفة ومتطلباتها ومسارها البيروقراطي.. فقد أسندت إلى الرئيس هواري بومدين العائد من مصر للمشاركة في الثورة الجزائرية قيادات متعاقبة نجح فيها نجاحات ساحقة وأثبت بنجاحاته المتوالية جدارته بأن يكون القائد العسكري الجزائري الأول والأبرز.

تدرب الرئيس بومدين في مصر التي أقام بها سنوات، وفي ١٩٥٧ اتخذ اسما عسكريا "هواري بومدين" عوضا عن اسمه الحقيقي محمد إبراهيم بوخروبة. وتولى مسئولية قيادة الولاية الخامسة وفي ١٩٥٨ أصبح قائد الأركان العربية وبهذا فإنه أصبح قائدا للغرب الجزائري طيلة الفترة من ١٩٥٧ وحتى ١٩٦٠ وتُعرف قيادة الغرب الجزائري اختصارا بقيادة وهران، وفي ١٩٦٠ أصبح الرئيس هواري بومدين قائد أركان جبهة التحرير الوطني.

وفي ١٩٦٢ أصبح الرئيس هواري بومدين وزير الدفاع في حكومة الاستقلال.

وفي ١٩٦٣ أصبح الرئيس هواري بومدين بالإضافة إلى هذا نائب رئيس المجلس الثوري دون أن يترك منصبه كوزير للدفاع.

موقفه من رئيسه

ثمة أسئلة أخرى كثيرة يُمكن للقارئ الآن أن يُجيب عليها بعد هذه الإضاءة لحياة الرئيس هواري بومدين، فهل كان من اللائق أن يترك رئيسه بن بيلا كل هذه الفترة سجينا حتى توفي هو نفسه في ١٩٧٨ بينما عاش بن بيلا حتى وفاته في أبريل ٢٠١٢ وقد بلغ عمره ٩٦ عاما.. قضى منها ٤٧ عاما رئيسا سابقا وقضى منها ٢٤ عاما عاشها بعد وفاة الرئيس هواري بومدين وهو في كل صباح وكل مساء يتذكر ما فعله به وزيره بومدين؟

أسئلة خلافته

هل مر بذهن الرئيس هواري بومدين أنه ليس رجل الجزائر الأخير وأن عليه أن يوجد أسلوبا آمنا لخلافته، بدلا من هذا الذي حدث بعد وفاته من اضطراب وحلول وسط؟

هل اكتشف الرئيس هواري بومدين قبل موته بعض ملامح من حقيقة القادة العرب الذين عاش يتعامل معهم على أنهم رجال ثورة مثله بينما لم يكونوا كذلك؟

هل كان في وُسع الرئيس هواري بومدين لو امتد به العمر أن يفهم حقيقة الموقف العربي من قضايا الاستقلال والتبعية، وفلسطين والصهيونية، فضلا عن أساليب التنمية المستقلة ومُقوّمات النهوض الحقيقة.

كيف كان الرئيس هواري بومدين يُفكر؟

هل كان الرئيس هواري بومدين قادرا على أن يكون نظيرا لديجول في إرسائه للجمهورية الخامسة وقواعدها؟ أو أن يكون نظيرا لروزفلت في إحكام سيطرة أمريكا على حُلفائها وعلى العالم أو أن يكون تشرشل في انتصاره للقانون، أم أنه كان يحلم بأن يُكرر تجربة ستالين أو تجربة ما وتسي تونج مع قدر أكبر من الإنسانية..

ربما تُتيح السنوات القادمة مزيدا من الضوء للإجابة عن السؤال المهم الذي لم يُجب عنه أحد حتى الآن أو لم يطرحه أحد بجدية مناسبة حتى الآن، وهو كيف كان الرئيس هواري بومدين يُفكر؟

وإذا جاز لي أن استشرف مستقبل العرب في العقدين القادمين فإني أرى نماذج متكررة من الرئيس هواري بومدين تفرض نفسها من آن لآخر، بينما أكون أنا قد ودعت الحياة، وقد عجزت أن أقدم لمثل الرئيس هواري بومدين من شبابنا ما كان ينبغي أن أقدمه لهم من سيناريوهات مسرح السياسة في عالم لا يرحم، ومجتمع دولي لا يمانع في أن يدهس بشراسة من لا يستبقه بالفعل والفعل المضاد. فاللّٰهُمَّ اغفر لي تقصيري.

* * *

٧
الفضيل الورتلاني جيفارا الإسلام السياسي

الفضيل الورتلاني في رأيي هو ثالث أبرز أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قادت الحركة الإسلامية في الجزائر منذ تأسيسها سنة ١٩٣١، كان من أقرب الشخصيات لمؤسسيها العلمين العظيمين الإمام عبد الحميد بن باديس والإمام محمد البشير الإبراهيمي رحمهما الله، وقد امتد نشاطه الفاعل والمؤثر في خمس دول، وهو ما لم يتح لغيره فقد أثر بفكره وحركته ونشاطه المبشر وقيادته وتوجيهه في الجزائر وفرنسا ومصر واليمن ولبنان بما لم يتح بالقدر ذاته لغيره من قادة العمل الميداني.

وإذا كان العالم يطنطن بجهاد جيفارا الذي تعدى الحدود، فإن الورتلاني يسبقه أثرا وتأثيرا وفضلا. فقد ساهم مساهمة فعالة في التمكين لمبادئ جمعية العلماء في الجزائر ثم في فرنسا وفي صفوف العمال الجزائريين هناك. ثم كان مسئولا في القاهرة عن مأسسة العمل التحرري في شمال إفريقيا كله وفي صياغة التآخي بين فكر الإخوان المسلمين وجمعية العلماء المسلمين، ثم تولى توجيه الحركة الإسلامية والوطنية فى اليمن.

نشأته وتكوينه الفكري

ولد إبراهيم بن مصطفى الجزائري المعروف بـ الفضيل الورتلاني في ٢ يونيو ١٩٠٠ في بلدة بني ورتيلان بولاية سطيف شرقي الجزائر، وإليها انتسب، وجاءت شهرته بالورتلاني، ونشأ في أسرة من أهل العلم، ويذكر أنه حفيد الشيخ الحسين الورتلاني صاحب الرحلة المشهورة.

درس الفضيل الورتلاني علوم اللغة العربية على علماء بلدته، ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة سنة ١٩٢٨ حيث استكمل دراسته على يد العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فتلقى عنه التفسير والحديث والتاريخ الإسلامي والأدب العربي، وتأثر به المصلح الكبير وبطريقته في الإصلاح، وأصبح منذ سنة ١٩٣٢ مساعداً له في التدريس، ومتجوّلاً لصالح مجلة الشهاب ومجلة البصائر ومرافقاً لابن باديس في بعض رحلاته.

رعاية المغتربين في فرنسا

ولما كان الشيخ عبد الحميد بن باديس منتبها إلى الضرورة القصوى للرعاية الروحية للمغتربين الجزائريين في فرنسا، فقد اختار تلميذه النابه الفضيل الورتلاني للقيام بهذه

المهمة الشاقة التي تتطلب إيمانًا بالقضية وإخلاصًا لها، ورغبة في الإصلاح والتغيير، وقد بدأ الفضيل الورتلاني مهمته الجليلة هذه في ١٩٣٦ مبعوثًا عن الجمعية، وأقام في باريس، وبدأ نشاطه المكثف بهمة عالية، واتصل بالعمال والطلبة الجزائريين بفرنسا، وتولى تأسيس مراكز وفصول لتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، واستطاع خلال عامين أن يفتتح كثيرًا من المجتمعات الثقافية في باريس وضواحيها وبعض المدن الفرنسية الأخرى.

ومكنته فرصة وجوده في باريس فاتصل بالدارسين العرب في الجامعات الفرنسية، وتوثقت بينهم المودة والصلة، وكان من هؤلاء العلامة الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز والشيخ عبد الرحمن تاج، والعلامة السوري محمد المبارك، والشاعر عمر بهاء الدين الأميري.

وقد أقلق هذا النشاط السلطات الفرنسية فضيقت على الفضيل الورتلاني حركته، وجاءته رسائل تهدده صراحة بالقتل، بعدما قررت منظمة "اليد الحمراء" الإرهابية اغتياله، فما كان منه إلا أن غادر فرنسا إلى إيطاليا بمساعدة الأمير شكيب أرسلان الذي وفّر له جواز سفر فانتقل إلى إيطاليا ومنها إلى القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٣٩م القاهرة، حيث آثر الانتساب إلى الأزهر فحصل على شهادته العالمية.

وجد نفسه في القاهرة

في القاهرة وجد الفضيل الورتلاني المناخ المناسب للنشاط الإسلامي والتحرري المثمر، واستقر الفضيل الورتلاني في مصر، حيث قضى فيها ألمع وأخصب سنوات حياته، وسرعان ما أصبح من أقرب المقربين للإمام الشهيد حسن البنا الذي بلغ تقديره له أنه كان ينيبه في إلقاء درس الثلاثاء بالمركز العام لجماعة الإخوان نظرًا لملكاته الخطابية، وقدرته على الإقناع بل إنه كلفه بالإشراف على تأسيس بعض شعب الجماعة في مصر

وفي القاهرة الليبرالية الحافلة بالحياة والفكر والحرية أسس الفضيل الورتلاني اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر سنة ١٩٤٢ وجمعية الجالية الجزائرية سنة ١٩٤٢ وجبهة الدفاع عن شمال إفريقيا ١٩٤٤ وكان هو أمينها العام وكانت تضم في عضويتها الشيخ

محمد الخضر حسين وحفيد الأمير عبد القادر الجزائري والأمير عبد الكريم الخطابي المغربي. ثم أسس مكتبا لجمعية العلماء المسلمين في القاهرة (١٩٤٨) واستقبل فيه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة ١٩٥٢

انقلاب اليمن

ثم جاءت النقلة الفاصلة حين امتد نشاط الفضيل الورتلاني بتكليف من الامام حسن البنا إلى مساندة الأحرار في اليمن، التي كانت تموج بحركة طموحة في الإصلاح والتغيير، وكان الإمام حسن البنا على علم بما يجري في اليمن، ومِن تطلُّع إلى الخروج بالبلاد من عزلتها وفقرها وجهلها، وقد وصل اليمن ١٩٤٧ وعمل على توحيد صفوف المعارضة والتأليف الموضوعي بينها، وقاد الثورة بخطبه الحماسية.

وفي فبراير ١٩٤٨ حدث ما هو معروف من نجاح المعارضة اليمنية في الوصول إلى الحكم بعد إزاحة الإمام يحيى، لكن الإمام أحمد يحيى حميد الدين عارض هذه الحكومة الدستورية في صنعاء واتهمها باغتيال والده وإهانة أخواته وقاد ثورة مضادة وجمع القبائل الموالية له وحارب النظام الجديد وأسقط النظام الدستوري في ١٣ مارس ١٩٤٨

الهروب من الإعدام

تولى الإمام أحمد عرش اليمن، وحُكم على الفضيل الورتلاني بالإعدام وأصبح مطلوباً، حيث قضى أربع سنوات متستراً قضاها في التجوال في الدول الأوروبية والتقى بالشيخ الإبراهيمي ونائبه الشيخ محمد العربي التبسي في سويسرا، ورفضت الدول العربية استقباله إلى أن وافق لبنان بفضل رياض الصلح رئيس وزراء لبنان على استقرار الفضيل الورتلاني في بيروت.

العودة إلى مصر

بعد قيام ثورة ١٩٥٢ عاد الفضيل الورتلاني إلى مصر بعد غياب عدة سنوات، واستقبله العلماء والسياسيون استقبالاً حسنًا؛ نظرًا لماضيه المشرِّف في الجهاد، وعاد إلى نشاطه وجهاده، ولعب أهم الأدوار في بزوغ الثورة الجزائرية التي اشتعلت على أرض بلاده ١٩٥٤. حتى انطلقت الثورة الجزائرية في ١نوفمبر١٩٥٤.

غداة اندلاع الثورة الجزائرية نشر الورتلاني مقالاً في ٣ نوفمبر١٩٥٤ بعنوان "إلى الثائرين من أبناء الجزائر: اليوم حياة أو موت" وفي ١٥نوفمبر١٩٥٤ أصدر مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بياناً بعنوان: "نعيذكم بالله أن تتراجعوا" وفي ١٧فبراير١٩٥٥ شارك في تأسيس "جبهة تحرير الجزائر"التي كانت تضم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وممثلي جبهة التحرير: أحمد بن بلة، حسين آيت أحمد، محمد خيضر، وبعض ممثلي الأحزاب الجزائرية: الشاذلي مكي وحسين لحول، عبد الرحمن كيوان، أحمد بيوض.

الهروب من مصر

ولم تَطُل مدة إقامة الفضيل الورتلاني بالقاهرة، بعد انقلاب عبد الناصر على الديموقراطية في ١٩٥٤، فقد غادرها إلى بيروت ١٩٥٥ بعد استئثار عبد الناصر بالسلطة واعتقالاته للإخوان المسلمين وإعدام ستة من قادتهم.

وكان من حسن حظ الفضيل الورتلاني أنه تمكن من مغادرة القاهرة سنة ١٩٥٥م متوجهاً ثانية إلى بيروت بعد أن تأكد من تآمر المخابرات المصرية عليه وعلى أستاذه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وفاته

لقي الفضيل الورتلاني وجه ربه الكريم في أحد مستشفيات مدينة أنقرة في ١٢ مارس ١٩٥٧، وبعد سنوات من الجحود، نقلت رفاته من تركيا ليعاد دفنها في مسقط رأسه، ودفن في مسقط رأسه بالجزائر.

* * *

٨
المجاهد الفذ الدكتور عباس مدني
أول زعيم حقيقي في زمن العولمة

رحل عن دنيانا الدكتور عباس مدني الرجل الذي لو عرف قادة عسكر الجزائر ما كان ينتظرهم من مجد الدنيا ونعيم الآخرة لو ساروا وراءه لتناوبوا خدمته آناء الليل وأطراف النهار، لكنهم غرتهم الدنيا فتناوبوا الحراسة عليه بدلا من أن يتناوبوا حراسته، فآذوا أنفسهم ووطنهم وجيشهم وشعبهم وإنسانيتهم وأجيال أبنائهم من بعدهم.

أول من تحدى نظرية نهاية التاريخ

توفي الدكتور عباس مدني الذي كان أول زعيم شعبي تحدى أداؤه الواثق ما عرف بعد ذلك بنظرية نهاية التاريخ ويحول محتوى هذه النظرية إلى فرضية ثبت فشلها.

تركنا الدكتور عباس مدني الرجل العظيم الذي أثبت أن قطب السياسة الموجب الحقيقي في هذا الكون الجديد هو الإسلام لولا جهل أبنائه وعجز أشقائه.

انتقل إلى رحمة ربه الدكتور عباس مدني التربوي المجتهد الذي حرر النفس المسلمة المعاصرة من الزهد الباهت المتمثل في الخوف من إغراء الدنيا، كما حرر النفس المسلمة المعاصرة من الرضا بالترفع المصطنع المؤدي إلى التفريط في أداء الواجب الديني تجاه نهر العمران البشري.

فارق دنيانا الفانية الدكتور عباس مدني المجاهد الذي أضاء للإنسانية بمختلف عقائدها طريقا واسعا للتحرر الفكري الجاد الذي حان أوانه للخلاص مما استنفد غرضه ووقته من ثنائية روزفلت، ومن غطرسة شوبنهور، ومن مادية ماركس، ومن سطوة ستالين، ومن جمود بريجنيف، ومن وهم ماوتسي تونج، ومن عجرفة جونسون، ومن حجرية أنور خوجة، ومن ضلال أتاتورك،، ومن تفكك جورباتشوف.

اقتبس وهج نار الحرية المقدسة بيديه قبل أن تنطفئ

ذهب إلى دار البقاء الدكتور عباس مدني القائد الميداني الذي كان على موعد مع التاريخ في شعب عربي لايزال يتهيب العودة للتاريخ، الزعيم الجسور الذي لمح وهج نار الحرية المقدسة فاقتبسها بيديه قبل أن تنطفئ، ولولا هذا القبس المبكر الذي اقتبسه في الوقت المثإلى ما نجح من بعده الدكتور مهاتير محمد، ولا الزعيم رجب طيب أردوغان، ولا الدكتور المنصف المرزوقي، ولا الدكتور محمد مرسي، رغم كل ما عانوه ولا يزالون يعانونه. نعم فقد كان هو المجاهد الفدائي الذي جعل من نفسه حجر الأساس للتجربة الشعبية الأصيلة القادمة مهما تكالب عليها المرجفون.

ارتقت روح الدكتور عباس مدني السياسي الرائد الذي أشجى العالم بصوت الإسلام الجزائري قبل بداية القرن الحادي والعشرين على نحو ما أسكت هو نفسه وبيده هو نفسه الإذاعة الاستعمارية في منتصف القرن العشرين ليخلي ساحة السماع والاستماع لصوت العرب الجزائري.

تكوين ثوري نادر

بدأ الزعيم عباسي مدني حياته في ٢٨ فبراير ١٩٣١ في دائرة سيدي عقبة القريبة من ولاية بسكرة حوإلى ٥٦٤ كلم جنوب شرق الجزائر العاصمة، وعرف منذ مرحلة مبكرة طبيعة الجهاد الوطني الحقيقي من خلال جمعية العلماء المسلمين، وبدأ ممارسة العمل في الحركة الوطنية الجزائرية وفي خلايا حزب الشعب الجزائري وفي حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وتعرف في بسكرة بالعربي بن مهيدي الذي أصبح في ما بعد واحدا من قادة ثورة التحرير كما شارك في خلية ثورية كان قائدها هو رابح بطاط، وقاد ليلة اندلاع الثورة مجموعة من المجاهدين التي حاولت وضع قنبلة في مقر الإذاعة الفرنسية بالعاصمة الجزائر فألقي القبض عليه أثناء العملية وقضي أكثر من سبع سنوات في السجن حتى استقلال الجزائر.

تكوين علمي رفيع المستوى

وكما كان للزعيم عباس مدني تكوين ثوري متميز ونادر، فكذلك كان له تكوين علمي نادر ورفيع المستوى، فبعد الاستقلال (١٩٦٢) عاد الزعيم عباسي مدني إلى مقاعد الدراسة فحصل على ليسانس في الفلسفة ثم واصل الدراسات العليا حتى الدكتوراه في التربية المقارنة. كما درس في العاصمة البريطانية لندن ما بين ١٩٧٥ و١٩٧٨ حتى نال وحاز دكتوراه الدولة في التربية.

نجاحه في الحياة النيابية

انتخب الزعيم عباسي مدني في مجلس الشعبي المحلي لولاية الجزائر العاصمة على قائمة جبهة التحرير الوطني. وفي أكتوبر ١٩٨٨ تأسيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وانتخب رئيساً لها بناء على اختيار مجلس الشورى. وفي يونيو ١٩٩٠ قاد حزبه الجبهة الإسلامية الى الفوز بالأغلبية في مجالس البلديات والولايات في أول اقتراع تعددي تشهده الجزائر في حياتها السياسية.

فوز جبهته وهو معتقل

حين استولى العسكر بالقوة على مقاليد الأمور اجهاضا للتجربة الديموقراطية (يونيو ١٩٩١) تقرر اعتقال عباسي مدني بأمر من الجنرال خالد نزار وزير الدفاع الوطني، حيث تم اعتقال الزعيم عباسي مدني يوم الأحد ٣٠ يونيو ١٩٩١.

وعلى الرغم من اعتقال زعيميها فازت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجولة الأولى من الانتخابات التشريعية التي جرت في ٢١ ديسمبر ١٩٩١. ولكن الجيش قرر إلغاء هذه الانتخابات وتفجّير العنف في الجزائر ونسبته زورا الى الإسلاميين مع ان العالم كله كان يعرف الحقيقة.

في ١٦ يوليو ١٩٩٢ حكمت عليه المحكمة العسكرية بالسجن ١٢ سنة بعد إدانته بـارتكاب جرائم ضد أمن الدولة والمساس بالاقتصاد الوطني (باعتبارهما من قاما بالتحريض على الإضراب وقيادته وهو الحق المعروف في الديموقراطيات "بالعصيان المدني".

إطلاق سراحه

وفي ٢ يوليو ١٩٩٧ أُطلق سراح عباسي مدني بعد اتفاق الهدنة بين السلطة والجيش الإسلامي للإنقاذ غير أن وزير الداخلية قرر فرض الإقامة الجبرية عليه بعد أن وجه رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان يخبره فيها أنه مستعد للمساهمة في إعادة السلم في الجزائر.

في المنفى الاختياري

في ٢١ أغسطس ٢٠٠٣ غادر عباسي مدني العاصمة الجزائرية متوجها إلى الدوحة لإجراء فحوص طبية بعد أن تدهورت حالته الصحية وبقي في الدوحة حتى وفاته.

مكانته في التاريخ

لو لم يكن عباس مدني مسلما لكان اليوم عميد زعماء العالم الحر متقدما في البروتوكول على مهاتير محمد، ولكانت إفريقيا قد احتفلت به مع نيلسون مانديلا في يوم واحد، قبل أن يلقى النكران وظلم أولي القربى، ذلك أنه قدم لوطنه أكثر بكثير مما قدمه الرئيس مانديلا، لكنه هو وإخوانه من الجزائريين الأبرار منذ ثورة التحرير أضاعوا حقوقهم الدنيوية بدرجات قصوى من التجرد وحب الوطن وإنكار الذات،

وها هم اليوم يعرفون ويعرف خلفاؤهم وحلفاؤهم من أهل الإيمان أن التجرد الزائد عن الحد يقترب في نتيجته من التفريط في الدين، ذلك أن الثورة الجزائرية العظيمة توهجت بدماء المسلمين العابدين والفدائيين ثم ترك هؤلاء وأولئك ثمارها لليساريين الزائفين من أصحاب الهمة المنخفضة والأنفاس القصيرة الذين آثروا أن يعيشوا تحت أقدام من يتعبدون لهم من العسكر برضا الكسل والمتكاسلين، واحدا بعد الآخر بدلا من أن يقودوا حركتهم لبناء دولة الوطن الجزائري الحقيقية مهما كانت التبعات، ولو أن هؤلاء اقتدوا بثورة روسيا البلشفية أو بثورة الصين لأنجزوا، لكنهم آثروا أن يكونوا كتبة وموظفين عند العسكر لسبب واحد فقط، هو أنهم كانوا يحقدون على الإسلام بل ويحقدون على الاشتراكيين الحقيقيين ببعض من حقدهم على الإسلاميين ,

تفتقد مجتمعاتنا الزعيم الدكتور عباس مدني بعدما ضرب أروع الأمثلة وأندرها في إنكار الذات، وفي التضحية بالنفس، وفي تحمل الأذى والظلم، وقد جاد بنفسه لأنه كان يعرف أن ربائب الاستعمار يكرهون ذاتهم عن جهل بري ء معتقدين بخبرة قاصرة أن كره الهوية والتنكر لها هو الذي يجلب لهم المكاسب، في حين تفرض المغارم والتضحيات نفسها على كل من يؤثر سلوك الإيمان بالله والثقة بالنفس، ومع أن الطريقين كانا متاحين أمام الدكتور عباس مدني، فقد آثر الهدى والرشاد ولم يعبأ بالاضطهاد، ومع أنه انخدع في بعض قادة العرب، فقد تجاوز المرارة ليؤسس تطويرا مفصليا في آليات التعامل مع العسكر بعيدا عن التعاون المظهري الذي لا يتعدى أن يكون صورة من صور نفاق الآخر وظلم النفس.

ندعو الله أن يتقبل برحمته وغفرانه عبده الصالح المجاهد المحتسب الأستاذ الدكتور عباس مدني الذي كان منارة من منارات الهدى في زمن حرص على أن يتعشق الظلم والظلمات؛ والذي كان صرحا من الإخلاص والوطنية والالتزام؛ رغم ما لقيه من الجحود والتعنت والعسف والخسف، والذي كان من أبرز رجال الدولة الحقيقيين في العالم المتحضر لولا أن مرض الرمد العربي لا يزال يرفض العلاج ويستعصى عليه.

وفاته

توفي الزعيم عباسي مدني ٢٤ أبريل ٢٠١٩ في الدوحة، وشيعت جنازته مرتين في الدوحة والجزائر، وشاركت في تشييعها أعداد غفيرة ورموز بارزة.

* * *

٩

خمسة وعشرون سببا تجعلني أدعو بالرحمة للقايد صالح رئيس الأركان الجزائري

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح جزاء ما قدّم لوطنه في الشهور الأخيرة من ضبط النفس وضبط الحراك والبعد عن العنف في ممارسة السلطة.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه يُرق قطرة دم واحدة ولم يزعم أنه يحتكر الصواب ولا الحقيقة المطلقة، ونحن يكفينا في هذه المرحلة من مثله أن يكون إنساناً وألا يكون قاتلاً، ويكفينا أن يكون ملتزما بعدم الاعتداء ولا نطلب منه أن يكون ملاكاً ولا نبياً.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يسمح لقائد مراهق بأن ينتهك عذرية بنات الوطن ولا لقائد آخر أن ينتهك حرمة البيوت والحياة الخاصة

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم ينتهج أسلافه في الدول العربية في ممارسة الخداع والالتفاف والتحريض ضد الشباب الطاهر.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يزعم بالزور أنه حامي الحياة المدنية ولا أنه مكافح للإرهاب.

لم يقبل بقسمة الوطن

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم ينفذ الكتالوج الخبيث الذي يقسم الوطن بين من يراهم مؤمنين يُسميهم إسلاميين أو إخوان، ومن يراهم ملحدين يُسميهم علمانيين قوى مدنية، وإنما مارس السياسة بهدوء وبُعد عن المؤامرة.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يهرع إلى أبو ظبي أو غيرها ليأخذ الأموال المسمومة ويُمارس الافتراء والبهتان.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يُمارس النفاق الرقيق ولا الشقاق العميق، ولم يسع في إفساد الأرض والزرع والحرث والنسل.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يُظهر غيرَ ما يُبطن ولم يتحدث عن المسافات الواحدة ولا عن الحياد الباهت ولا عن الثأر البايت.

لم يحرض على وطنه

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يلجأ إلى الصهاينة ولم يُحرّضهم على وطنه، ولم يسع في نفاق البيت الأبيض ولا الميدان الأحمر ولا القصر الأنعم ليُؤمّن لنفسه مستقبلاً في الخيانة والعمالة.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه رغم الظروف القاهرة لم يقبل بإلحاحات القاهرة في التغاضي عن تدخّل سافر في ليبيا وظلّ على ما التزم به وطنه العظيم الجزائر من حرص نبيل على أمن الليبيين وسيادتهم على أراضيهم بعيداً عن هذا التآمر الدولي الذي يتكثف كلّ يوم لنهب ليبيا والليبيين.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه تذكر فضل ليبيا السنوسية على الثورة الجزائرية وما بذلته من أجلها من المال والسلاح والدعم، فلم يُعن الشياطين على ليبيا، وإنما وقف لهم بالمرصاد كما فعل سلفه الرئيس بوتفليقة، وذلك على الرغم من أن الأصوات الزاعقة لا تذكر لهم هذا الفضل، لكنهم مع هذا لم يتخلوا عن الواجب.

رفض تأجيج النزاع مع المملكة المغربية

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يتورّط في تأجيج النزاع مع المملكة المغربية ولم يُوظف هذا النزاع في خدمة الأغراض الشخصية ولا في خدمة التطلّع إلى الاستيلاء على السلطة.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يطلب، ولو سرا، من سلطة القضاء وسلطة التحقيق إطالة الأمد في التحقيقات مع رموز النظام السابق، ولم يعمد إلى التدخل الخفي في هذه التحقيقات بالتركيز على تهم تافهة للهروب من التهم الحقيقية.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يتذرع بأيّ عذر يُمكن له أن يلعب به لعبة الإفادة من كل الأطراف.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه كبح جماح القادة المغامرين الذين كانوا يُريدون اصطناع أزمات مع الحراك الشعبي وبدء مسلسل الدم وتوجيه ضرباتهم إلى صدور الثوار بأيّ مُسمّى من المسميات الكاذبة من قبيل الحفاظ

على أمن الوطن، وأمن الرعايا الأجانب أو الحفاظ على الأموال العامة أو النظام العام.

لم يقتل أبناء شعبه في الميادين ولا في الشوارع

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يقتل أبناء شعبه في الميادين ولا في الشوارع لا في الأزقّة ولا في الاستاد.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يعمد إلى إشعال الحريق ولا إلى تعطيل المرور ولا إلى انقلاب قطار ولا إلى تلغيم طائرة.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه ظل حريصا على أن يترك الدنيا بيد غير ملوثة بالدم.. وقد رزقه الله ما أراد، لأنه وهو المطّلع على النوايا وجد فيه خيراً ولا نزكي على الله أحداً.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه مارس القيادة بلفظ عفيف، وكلام منضبط.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه تقبّل التكريم في وقته دون أن يظن نفسه فوق التكريم.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه أنهى في شهور قليلة ما عجز غيره عن إنهائه في سنوات مُتّصلة.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه كان حريصاً على التعبير عن احترام الشعب لا على التعالي عليه.

لم يستتر كالطغاة وراء حجاب

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه كان يُمارس مهامه بنفسه دون أن يستتر وراء حجاب على نحو ما يفعل الطغاة البغاة الذين يبحثون عن القفاز حين يقتلون وعن القناع حين يُهاجمون وعن الدروع حين يعصفون.

أدعو الله ﷻ بالرحمة لرئيس الأركان الجزائري القايد صالح لأنه لم يسجن الآلاف ولا العشرات بلا سبب إلا خوفه من ظله، فقد كان له من ثقته بخالقه الغفور الرحيم ما حماه من عبادة الشيطان.

* * *

الباب الثالث تونس

١٠
الرئيس الحبيب بورقيبة
ثائر من القرن السابع عشر في القرن العشرين

تُمثل تجربة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ١٩٠٣- ٢٠٠٠ الذى تولى رئاسة تونس لأكثر من ثلاثة عقود ١٩٧٥- ١٩٨٧ في رأيي المتواضع مرحلة مهمة من مراحل التنمية في العالم الإسلامي، وهي مرحلة المراهقة التنموية، حين يظن صاحب التجربة أن من واجبه على نفسه وأن من حقه على شعبه أن يخوض ما يراه واعدا على حساب ما هو واجب.

هذا الصراع بين الواعد والواجب هو جوهر ممارسات المراهقة حين تعمد إلى الانفلات من الثوابت أو المبادئ أو القيم التي يُلزمها المجتمع بها أو التي يُلزمها المجتمع الأبوي بعدم الخروج عنها، أو عليها، ومع هذا فإن الشعور بالحاجة إلى اللذة عند تحقق رغبات المراهقة تدفع صاحب التجربة إلى تخطي كل الحواجز ليحصل على النجاح المتولد عن تحقق اللذة سواء تمثل هذا النجاح في تقدم كلي أو انتقال إلى مرحلة سابقة في القيمة الحضارية أو تمثل في تحقيق معدلات نجاح محسوبة أو الوصول إلى معدلات قياسية مرصودة، أو حتى إن كان النجاح قد تمثل في تخطي المراحل المُفترضة من أجل الوصول إلى النجاح فيما يعرفه علماء السياسة على أنه حرق للمراحل وقفز على الترتيب التقليدي لهذه المراحل على نحو ما وصفها علم الاجتماع السياسي.

كفره بالديموقراطية لا يقل عن كفره بالتراث

لا يزال الليبراليون والعلمانيون يقدمون صورة زاهية للرئيس الحبيب بورقيبة غير أني لا أرى في الصورة التي يقدمونها إلا صدى لإعجابهم القاصر بما يقدمه لهم الماركسيون من دواعي الإعجاب المعولب بأي موقف لا إسلامي أو بالأحرى معاد للإسلام، ومع أن الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة كان معذورا بدرجة ما بسبب تواكب وجوده مع عصر طغيان الانقلابات العسكرية ومع طغيان روح ذلك العصر العسكريتاري فإن المعجبين الآن بديكتاتوريته ليسوا معذورين بأي حال من الأحوال.

ولنقرأ على سبيل المثال هذه الفقرة المكتوبة للحبيب بورقيبة وباسمه حين يقول: "لا أعتقد إن الوقت ملائم للحديث عن الديمقراطية في مفهومها المطلق، فالمجتمعات العربية همشت مفكريها وعلمائها الحداثيين لحساب شيوخ توقف الزمن بهم قبل

أربعة عشر قرناً، وهو الفارق بيننا وبينهم.. لذا وجب العمل على نشر ثقافة أكثر واقعية، يكون فيها للعلوم الحديثة مكاناً أوفر.. فخذ مثلاً، لو طلبنا من الشعب التونسي إجراء استفتاء عن موقفه من تعليم المرأه، فسأجزم إن ٩٩. ٩٩ ٪ سيرفضون تعليمها".

ولهذا السبب أو بسبب هذا الفهم فإنه هو نفسه كان يقول: "سأفرض حرية المرأة وحقوقها بقوة القانون.. لن أنتظر ديمقراطية شعب من المنخدعين بالثقافة الذكورية باسم الدين".

خلطه بين النشاط المطلوب والروتين المعتاد

على صعيد آخر فقد كان الرئيس الحبيب بورقيبة (شأنه في هذا شأن كل من عاشوا بعض شبابهم في المجتمعات الغربية) يتمنى لوطنه روحا من العمل والنشاط التي يراها في فرنسا ولهذا فإنه كان لا يتصور أن هذا النشاط الذي رآه هناك يمكن أن يتحقق إلا في ظل نفس الروتين الفرنسي في الحياة حتى لو كان هذا النظام أو الروتين اليومي يتخطى خصوصيات التربية الإسلامية في اليوم العادي أو اليوم الرمضاني، وهكذا فإنه كان يظن أنه لا بد له من هدم أي نظام يومي غير النظام الفرنسي كيلا يكون هناك ما يحول في رأيه دون الوصول إلى المُعدّلات المُتاحة في المجتمع الفرنسي.

ولو أن الرئيس الحبيب بورقيبة عرف في حياته المبكرة العوائد الصحية والطبية لكثير من شعائر الإسلام أو لكثير من عادات المجتمع التونسي لعلم أنه كان بسلوكه الساعي إلى تحقيق ثروة معقولة كان يُدمّر عوامل تكوين ثروة أكبر بكثير من تلك التي تصور نفسه مطالبا بالحصول عليها في وقت معين.

تصوره للعلاقات الاجتماعية

كان تصور الرئيس الحبيب بورقيبة للعلاقات الاجتماعية يقوم على إطلاق الحرية الواسعة في هذه العلاقات على نحو ما رآه في فرنسا، ومع هذا فإنه لم يكن قادرا على تصور أن الحرية القانونية شيء وأن الحرية التربوية شيء آخر، ولم يكن بقادر أيضا على أن يتصور أن الحرية الاجتماعية فرع من الحرية السياسية حتى لو بدا أنهما أمران متوازيان ومتساويان.

ولو أدرك الرئيس الحبيب بورقيبة هذه الحقيقة لعلم أن كل ما كان يطلبه تحت مظلة الحرية الاجتماعية كان محكوما عليه بالفشل لأنه هو نفسه قيد الحريات السياسية على نحو لا تقبله السياسة الحرة ولا تقبله التطلعات الفكرية التي تراود أبناء شعب متصل بالحضارة ومتصل بالغرب ثم متصل بالإعلام والسينما وكل ما يصور حدود الحرية المتاحة في خارج أسوار أجهزة الدولة التونسية إن جاز التعبير.

إفراطه في الاعتماد على تغيير التشريعات

كان الرئيس الحبيب بورقيبة يظن التشريع هو الأداة الأكثر نجاحا في تحقيق سياسات النهوض المُجتمعي، ولو علم أن القانون يستنبط نفسه بنفسه بحكم التقدم بأكثر مما يُحقق التقدم ما أتعب نفسه في هذا الصراع الذي جعله ينصرف عن التنمية إلى التشريع، وجعله ينصرف أيضا عن تأصيل العلم الحقيقي الجالب للتمدن الأصيل والمستدام إلى فرض نوع من التمدن الوقتي المستورد الذي كان التمدن الأصيل كفيلا بأن يتخطاه بسهولة لو أن الرئيس الحبيب بورقيبة استوعب التجربة اليابانية على سبيل المثال.

لكن الرئيس الحبيب بورقيبة ظل أسيرا للتجربة الفرنسية في المقام الأول وكان يراها عن حق أقوم سبيلا من التجارب الأمريكية والسوفييتية بتكاليفها الباهظة وقد كان مُحقا في هذا الذي آرتاه حسب معطياته لكنه مع هذا لم يُدرك جوهر الحقيقة ولا جوانبها الخصبة والملحة في خصوبتها القادرة على التوليد والتجديد وليس على التحديد والتقييد، وهما الأسلوبان اللذان فرضا نفسيهما على الرئيس الحبيب بورقيبة وجعلاه يميل إلى إحداث تطور محدود في التقدمية.

وجوده في المجال المغناطيسي لجاذبية المراهقة الفكرية

يقودنا التأمل الهادئ للتجربة البورقيبية الغنية بالعناصر الجوهرية إلى مضمونها ومُبتغاها، فإذا أردت أن تواصل فهم توجهات الرئيس الحبيب بورقيبة في سعيه إلى المراهقة الفكرية التي كانت تدفع به إلى أن يُلزم المجتمع التونسي بالانتقال إلى النمط الغربي في الحياة الاجتماعية فإنك ستذهل إذا اكتشفت أن الرئيس الحبيب بورقيبة في أهدافه الكبرى لم يكن يريد دخول عصر الفضاء ولا العصر النووي ولا أي عصر

من عصور السيطرة والقوة والمنعة ولا حتى عصور الوفرة والثروة والمتعة، وإنما كان يريد أهدافا نبيلة من قبيل تحسين مستوى الخدمات وتحسين مستوى التعليم ورفع مستوى المعيشة وهي أهداف كانت تتحقق في القرن السابع عشر على نحو يوفر مخزونا من الخبز فلا تحدث الثورة الفرنسية، ويوفر التعليم فلا تحدث الوباءات المرضية، ويوفر مخزونا من الطعام والماء يكفل منع المجاعات والجفاف..

وإذاً فلم يكن الرئيس الحبيب بورقيبة يستهدف سيطرة إمبراطورية ولا نفوذا إمبرياليا ومع هذا الخُلو من السُفه المأخوذ أو المفتون بالسيطرة مما يُحسب للرئيس الحبيب بورقيبة وعقله واتزانه وموضوعتيه، فإنه من ناحية أخرى كان يُفقده المبرر القوي في توجهه نحو اللجوء إلى القوة (ولو كانت نصا قانونيا فحسب) في تغيير عادات مُجتمعه الإسلامي بحيث يفرض على أبناء هذا المجتمع ترك الفروض كفرض الصوم، أو تقليلها كتقليل الصلاة أو النظر في جدواها الحقيقية على نحو ما فعل مع الحج.. كان الرئيس الحبيب بورقيبة في نظراته واجتهاداته في كل هذه الموضوعات ينطلق في أفق ضيق.. وأنا أستخدم حرف الجر (في) ولا أستخدم حرف الجر (من) لأعني أنه كان ينطلق من أفق ضيق إلى أفق أكثر ضيقا ولم يكن ينطلق من أفق ضيق إلى أفق واسع..

كان يجهض تجربته بنفسه

بهذه المفاهيم الرجعية كان الرئيس الحبيب بورقيبة يحكم على تجربته بمقاييس عصر انتهى وانتهت صعوباته ولم يكن يُدرك أن الإنسانية نفسها قد ارتقت وتجاوزت هذه المراهقات التي تظن نفسها مراجعات.. ذلك أنه في العصر الذي يشهد زيارة الملايين المملينة (ولا نقول الآلاف المؤلفة) لبرج إيفل أو متحف اللوفر يُصبح الحديث عن تقليل أعداد الحجاج والمُعتمرين نوعا من الخبل الذي يصل إلى حد السفه بل يصل إلى حد الجنون، فالأمر بالمنطق المادي البحت (وبعيدا عن روحانيات الإسلام وفروضه وفرضياته وسننه) هو أمر رحلة جميلة ميسرة في عصر الاتصالات وهو أمر تتنافس فيه الدول والمؤسسات من أجل إتاحة الفرصة للجماهير للاستمتاع بهذه الرحلة والإكثار منها لأنها تقوم بوظائف الرحلة التي هي في حد ذاتها ركن ركين من أهم مقومات الحضارة الحديثة.

عيوب عصره العربي كرست له مآخذ فكره

ومن المؤسف أن الرئيس الحبيب بورقيبة عاش العصر الذي كان قد فرض (بطريقة ناعمة) مفاهيم آليات التقليل الخفي من أعداد الحُجّاج والمُعتمرين، وعاش العصر الذي كان فيه زعماء من طراز الرئيس جمال عبد الناصر يتعاملون مع الحج على أنه أمر سياسي يدخل في نزاعاتهم العربية المشتركة القاصرة عن الفهم وعن الإقناع.

وهكذا فإنه بدلا من أن يتطور حب الرحلات في فكر الرئيس الحبيب بورقيبة الذي عاش صورة الحضارة الارتحالية في أوروبا، وهي الحضارة التي تقدس دور الرحلة والسفر وتبني من خلالهما كثيرا من مقومات شخصيات أبنائها على ممارسة متكررة ودورية للسفر والرحلة والكشف والتخييم... الخ) وبدلا من أن يكون هذا التطور أكبر مُشجع له أو أكبر دافع له على أن ينتبه بعمق ويقين إلى أن تؤدي رحلات الحج والعمرة أهدافها الاتصالية والاجتماعية والحضارية، إذا به يبدو وكأنه يُحارب المظهر الديني محتجا بعقلية متأثرة بالقرون السالفة، حين كانت وسائل الاتصال لا تزال على تخلفها وخطورتها مع قطع الطُرق وصعوبة تأمينها.

كان نموذجا لمن لم يعرفوا العلم التجريبي في عصر العلم

تستطيع أن تعتذر عن الرئيس الحبيب بورقيبة بذكر حقيقة فهمه وهي أنه لم يتصل في دراسته بالعلم التجريبي من قريب ولا من بعيد وإنما كان مُتصلا شأنه في هذا شأن علماء الدين القُدامى بالعلوم القديمة التي يمكن لنا وصفها بالقول الطريف الذي وصف علم النحو وأشباهه من العلوم المستقرة بأنه علم نضج واحترق، وهكذا لم تكن عقلية الرئيس الحبيب بورقيبة قادرة على أن تستوعب تطورات العصر.

لك أن تقارنه في هذا الجانب بالرئيس مبارك أو الرئيس الأسد الذين كانت معرفتهما بالطيران تقودهما إلى معرفة تطوراته المعتمدة على فورة التكنولوجيا لا ثورتها فحسب، ومن ثم فإنه ظل حتى آخر أيام حكمه قادرا على أن يفهم ما يتيحه التطور التكنولوجي من نسف الصعوبات القديمة أو من القدرة المتجددة على نسف هذه الصعوبات. ومن الواجب أن ننتبه إلى أن هذه المزية كانت تعوز الرئيس الحبيب

بورقيبة في كثير من تصريفه للأمور بينما كان الرئيس مبارك أو الرئيس الأسد يستطيع أن يقول بثقة في مناقشة من المناقشات إن هذه الصعوبة التكنولوجية أو الاتصالية انتهت، أو إنها لم تعد دافعا إلى وضع خطة لمجابهتها أو البناء على وجودها.. بينما كان الرئيس الحبيب بورقيبة لا يزال جامدا في كل متابعاته جمود الأقدمين بحكم ما افتقده من قدرة على التواصل مع آفاق العلم التجريبي وتجلياته وتطبيقاته.

ومع هذا كان نموذجا للتعقل

مع كل هذا الذي ذكرناه عن الرئيس الحبيب بورقيبة فإنه في عصره كان نموذجا للعقل والتعقل، ولهذا فإنه كان أكثر قبولا لدى الجماهير العربية من العسكريين على الرغم من تشبع هذه الجماهير بالديماغوجية الناصرية، وأقصى ما كان يُوجه إليه من نقد هو السخرية من كبر سنه أولا (ولد ١٩٠٣) ومن مرض قلبه ثانيا (وهو ما لخصه الرئيس عبد الناصر (بطريقته الفظيعة في إحدى خطبه) فقال عند ذكر اسم الرئيس الحبيب بورقيبة في سياق حديثه: آه يا قلبي، والسخرية ثالثا من توجهه القائل بالتفكير في قبول قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين في ١٩٤٨.

وقد صُور هذا الرأي الذي أبداه الرئيس الحبيب بورقيبة في شجاعة ووضوح وهدوء في مدينة أريحا ١٩٦٦ على أنه الكفر نفسه بينما كان الذين هاجموه قد أعطوا إسرائيل بالاتفاق أو الصمت أكثر مما أعطاهم قرار التقسيم، بل ومنعوا (فيما قبل ١٩٦٧) قيام دولة فلسطين وهو المنع الذي لم يكن يفيد أحدا إلا إسرائيل.

ومع هذا فإن العرب في غفلتهم وديماجوجيتهم وإعلامهم الزاعق صوروا لأنفسهم أن الرئيس الحبيب بورقيبة أقرب إلى الخيانة وأن العسكريين الذين أفادوا إسرائيل بسياسات مكتوبة هم الأقرب للشرف.

لكنه ظل أسيرا للديماجوجية

ومن العجيب أن الرئيس الحبيب بورقيبة ظل أسيرا للصدمة الديماجوجية التي أصيب بها في ١٩٦٦ إن صح هذا التعبير، فحين أنجز الرئيس السادات ما أنجزه في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم في كامب ديفيد كان الرئيس الحبيب بورقيبة بعيدا تماما عن المساعدة مع أنه كان قادرا على المساعدة كما كان بعيدا عن المشاركة مع أنه كان

متوقعا منه أن يشارك.. بل إن الرئيس الحبيب بورقيبة في ظل بقاء أثر صدمته المبكرة عندما ألقى خطبته الشهيرة في أريحا في ١٩٦٦ آثر أن ينضم إلى العسكريين وأشباههم من الشموليين الذين رأوا وقرروا ونفذوا مقاطعة مصر عقابا على توجه رئيسها.. صحيح أنهم قالوا (وفي هذا القول إثم كبير) إن الرئيس الحبيب بورقيبة كان هو الوحيد المستفيد لأن الجامعة العربية انتقلت من القاهرة إلى تونس بيد أن خسارة الرئيس الحبيب بورقيبة المثقف الطليعي لنفسه كانت أفدح بكثير من أن يصبح وزير من وزرائه هو الشاذلي القليبي أمينا عاما للجامعة العربية فحسب.

صحيح أن سن الرئيس الحبيب بورقيبة في ذلك الوقت كان قد ناهز الخامسة والسبعين (فقد ولد كما ذكرنا في ١٩٠٣) لكن أي مثقف قارئ لم يكن يتوقع أن يكون الرئيس الحبيب بورقيبة واحدا من طابور المرتلين وراء الرؤساء القذافي وعلي عبد الله صالح وصدام وحافظ الأسد.. إلخ.

الأثر السلبي لانتقال الجامعة العربية إلى تونس

وقفت سياسات التحديث البورقيبية فجأة في منتصف الطريق، عند تلك النقطة الواعدة، فقد أصبحت تونس بحكم انتقال الجامعة العربية إليها مشاركة (وإن كانت مشاركة مكانية فحسب) في حركة رمال الصحراء العربية وفي هجير هذه الصحراء التي كانت تعاني من تربصات العسكريين العرب ثم جاءت مشاركاتها في الصراع العربي الإسرائيلي فترة الثمانينات لتفتح عليها أبواب تعاملات اقتصادية وورطات استراتيجية.

وصحيح أن نظام الرئيس الحبيب بورقيبة كان من الذكاء بحيث لم يورط نفسه، لكنه لم يكن بأي حال من الأحوال يستطيع أن يُنكر أن الاغتيالات الإسرائيلية لنجوم منظمة التحرير الفلسطينية تمت على أرضه، وأن بعض الخطط المستهدفة لمنظمات الفلسطينيين انطلقت من أرضه، وهكذا أصبحت تونس بؤرة نشاط دون أن تكون في المقابل بؤرة تفكير أو بعث صوري أو بعث ثوري أو بعث جهادي أو إصلاحي.

ولهذا السبب فإنك تستطيع أن تتصور بكل بساطة أن تونس في نهاية الأمر استقبلت قرار عودة الجامعة العربية إلى القاهرة استقبالا مريحا بل وربما مرحبا.

أما نظام الرئيس الحبيب بورقيبة الاقتصادي أو نظام تونس الاقتصادي في عهد الرئيس الحبيب بورقيبة فقد أخذ من آليات الاشتراكية مجموعة منتقاة من الآليات بما يتوافق مع حكم الفرد وحكم الحزب الواحد والبعد عن تداول السلطة وذلك تحت شعار العدالة الاجتماعية وهي الخلطة المراوغة التي أخذ بها معظم زعماء العالم الثالث.

هل كانت البورقيبية إحدى تجليات اشتراكية العالم الثالث؟

كان نظام الرئيس الحبيب بورقيبة أحد تجليات ما أُسميه اشتراكية العالم الثالث وهي الاشتراكية الكفيلة بدعم اللاديموقراطية ومحاربة الديموقراطية وصندوق الانتخابات، وهذا هو أدق تعبير مُتاح، وهو في رأيي أدق من أن نشتق لها مصطلح الاشتراكية الدكتاتورية ذلك أن الاشتراكية بطبعها تلتقي مع الديكتاتورية في كثير من النقاط لكنها ليست مُنتجا حتميا للدكتاتورية كما أنها ليست منتجا اختياريا للدكتاتوريات بحيث يمكن أن نقول إن هناك ديكتاتورية اشتراكية وديكتاتورية لا اشتراكية.

أما المعنى الذي أوجده الرئيس الحبيب بورقيبة مبكرا وتبعه كثيرون من أمثاله فهو الاشتراكية اللاديموقراطية أي الاشتراكية المواكبة لانعدام الديموقراطية، ونحن نعلم أن الفجور كان قد وصل ببعض أنداد الرئيس الحبيب بورقيبة (ممن حازوا من التصفيق أكثر مما حاز) إلى فكرة لم يتورط فيها الرئيس الحبيب بورقيبة لا سياسيا ولا علميا وهي الادعاء الفاجر بأن هذه الاشتراكية اللاديموقراطية هي البديل للديموقراطية السياسية ومن ثم فإنهم أطلقوا عليها الديموقراطية الاجتماعية. ومن الإنصاف أن نقول إن الرئيس الحبيب بورقيبة لم يصل إلى هذا التلاعب أو التدليس الفكري أو السياسي.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن الرئيس الحبيب بورقيبة لم يدخل في أي نزاع مع الاتحاد السوفياتي فإنه لم يقم معه علاقات اقتصادية أو عسكرية.

وخلاصة القول في هذه الجزئية وغيرها، هي أن الرئيس الحبيب بورقيبة كان مجتهدا بقدر ما علم، وهو قليل بالنسبة إلى عصره، مجتهدا بقدر ما حلم وهو قليل جدا بالنسبة إلى عصره.. وكان افتقاده للعلم والحلم أكثر من افتقاده للكفاءة التي لم تكن تنقصه أبدا وأكثر بكثير من افتقاده للادعاء بالوطنية الذي لم ينخرط فيه لأنه كان في واقع الأمر (ومهما افترى عليه خصومه) وطنيا حقيقيا وكان مخلصا ما وسعه الإخلاص وما استطاعه.

كان الرئيس الحبيب بورقيبة جادا في القضاء على معارضيه وخصومه السياسيين بمن فيهم كل رفاق الكفاح من أجل الاستقلال، وخاصة من عرفوا بـ"اليوسفيين"، أي أتباع صالح بن يوسف الذي اغتيل في فرانكفورت بألمانيا في أغسطس ١٩٦١.

ألغى الرئيس الحبيب بورقيبة معظم الحريات الأساسية وفرض الرقابة على الإعلام، وجمّد نشاط الحزب الشيوعي عام ١٩٦٢، ثم حارب الإسلاميين بشراسة فيما عرف بحركة الاتجاه الإسلامي. وفيما بعد ذلك كان من المتوقع أن ينحو في السياسة شمولا في الواقع، ويمينا في المال، ويسارا في الظاهر، وقد فعل: حيث أقر نظام الحزب الواحد / وتحالف مع الاتحاد العام التونسي، وشرعن ذلك بتعديل دستوري في ٢٧ ديسمبر ١٩٧٤ سمح له برئاسة الدولة مدى الحياة.

ميله للأوتوقراطية

في واقع الأمر فقد كان الرئيس الحبيب بورقيبة في مُجمل فترة رئاسته ميّالا للحكم المُطلق وليس أدلّ على هذا من أنه وحتى عام ١٩٧٩ جمع رئاسة الوزارة مع رئاسة الجمهورية وكأنه يتبع النظام الرئاسي الأمريكي لكنه كان في الحقيقة ينهج النهج الذي آثره الرئيس جمال عبد الناصر وآثره الرئيس الفريق عبود في السودان كما آثره الملكان السعوديان.

ولما بدأت مظاهر التخلي عن هذا الجمع واضحة في باريس وغيرها بعد تنحي ديجول (أبريل ١٩٦٩) اتجه الرئيس الحبيب بورقيبة إلى اختيار رؤساء وزراء من طبقة رفيعة تفوق طبقة نُظرائهم في البلدان العربية فكان منهم الباهي الأدغم (نوفمبر ١٩٦٩ ـ نوفمبر ١٩٧٠) الذي شارك في وفد الجامعة العربية لحل مشكلة أيلول الأسود في ١٩٧٠

والهادي نويرة وهو أطولهم عهدا (نوفمبر ١٩٧٠ ـ أبريل ١٩٨٠) ثم محمد مزالى المثقف المعروف الذي بشر به المثقفون ليكون خليفة للرئيس الحبيب بورقيبة فأحرقوه دون أن يدروا خطورة ما يفعلونه بقصر نظرهم المعتاد (أبريل ١٩٨٠ ـ يوليو ١٩٨٦) ثم رشيد صفر أقلهم حضورا (يوليو ١٩٨٦ ـ أكتوبر ١٩٨٧).

ثم جاء زين العابدين ليلبث في رئاسة الوزارة ٣٥ يوما فقط أتم فيها انقلابه (الطبي) على الرئيس الحبيب بورقيبة، وكانت خطة انقلابه الطبي بمثابة مشروع متاح من دون أن يتصدى له المدنيون بقبول كاف لكن الجنرال زين العابدين كان بمثابة المرشح الغربي الأنسب لما عرف عن العسكريين والأمنيين من حب للانقلابات بالطريقة الغادرة بعد أن يحصلوا على الثقة الكاملة ممن ينقلبون عليه ولو كلفتهم هذه الثقة أن يذبحوا أبناءهم لرؤسائهم لتكون الثقة مطلقة فتسهل عليهم الغدر الكامل.

هكذا أتم الجنرال زين العابدين بن على وزيره الأول (رئيس الوزراء) الانقلاب على الرئيس الحبيب بورقيبة، وأعلن نفسه في ٧ نوفمبر ١٩٨٧ رئيسا جديدا للجمهورية التونسية. ووضع الرئيس الحبيب بورقيبة قيد الإقامة الجبرية في مسقط رأسه المنستير، وحجبت أخباره عن الإعلام إلى أن توفي في ٦ أبريل ٢٠٠٠، ومنع الإعلام الأجنبي والمحلي من نقل مشهد جنازته أو عرض فيلم عن حياته، كما منعت الاحتفالات بذكرى وفاته.

وبعد ثورة الربيع العربي ٢٠١١، أشرف الرئيس التونسي الأول بعد الثورة الدكتور منصف المرزوقي على إحياء ذكرى وفاة بورقيبة بالمنستير، وذلك على الرغم من أن والد المرزوقي نفسه كان مناصرا لصالح بن يوسف واضطر بسبب ذلك للهجرة من تونس.

ملخص مسيرته السياسية

عمل الرئيس الحبيب بورقيبة بعد تخرجه في جامعات فرنسا بوطنه في المحاماة والصحافة، وأصدر صحيفة "صوت التونسي" ١٩٣٠، ثم صحيفة "العمل التونسي" ١٩٣٢، وبدأ الرئيس الحبيب بورقيبة العمل السياسي ١٩٣٣ من خلال الحزب الحرّ الدستوري تحت قيادة الزعيم التونسي العظيم عبد العزيز الثعالبي، لكنه سرعان ما انشق عنه وأسس مع آخرين: الحزب الحر الدستوري الجديد في ٢ مارس ١٩٣٤. اعتقلته سلطات

الاستعمار الفرنسي أكثر من مرة بسبب نضاله من أجل التحرر، فهرب إلى مصر وحظي بدعم النحاس باشا والوفد والجماعات المتعاونة مع مكتب المغرب العربي، وسافر إلى بلدان عديدة كالهند وإندونيسيا وإيطاليا وبريطانيا والولايات المتحدة وعاد في أثناء هجرته إلى تونس أكثر من مرة.

وفي ٢ يناير ١٩٥٢ أعلن الرئيس الحبيب بورقيبة ما اعتبر بداية الحرب السياسية على فرنسا، وسرعان ما اندلعت الثورة المسلحة في ١٨ يناير ١٩٥٢، واعتقل مع عدد من رفاقه في الحزب، وبعد حوإلى ثلاث سنوات تفاوضه الفرنسيون على عادتهم.

عاد الرئيس الحبيب بورقيبة إلى تونس في ١ يونيو ١٩٥٥ وحظي باستقبال شعبي كبير. وسرعان ما وقع مع فرنسا في ٣ يوليو ١٩٥٤ معاهدة تمنح تونس استقلالها الداخلي وتسمح بإعلان الدولة التونسية. لكن رفيقه الأهم صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري الجديد عارض المعاهدة، ووصفها بأنها خطوة إلى الوراء، مما تسبب في انشقاق الحزب إلى فريقين ودخول الرفيقين في صراع شرس.

ولأن التاريخ يكتبه المنتصر فإن المتواتر هو أن الرئيس الحبيب بورقيبة استطاع إقناع أغلبية التونسيين بالمعاهدة التي تلاها توقيع وثيقة الاستقلال التام في ٢٠مارس ١٩٥٦، وبعد ذلك ألغى الرئيس الحبيب بورقيبة الملكية بخلع الملك محمد الأمين باي وإعلان تونس دولة جمهورية في ٢٥ يوليو ١٩٥٧، واختير هو نفسه أول رئيس للجمهورية التونسية.

تحولاته الرئاسية الأولى

في بداية عهد الرئيس الحبيب بورقيبة حدث شيء طريف مُقارب لما حدث في نهاية هذا العهد فقد بدأ الحبيب رئاسته للمجلس التأسيسي بأن كلف الطاهر بن عمار برئاسة الوزارة لكن هذه الرئاسة انتهت بعد ٢٢ يوما فقط.

ربما لا يعرف الناس الآن أن الرئيس الحبيب بورقيبة بدأ توليه السلطة برئاسة ما سُمي المجلس القومي التأسيسي ما بين ٩ أبريل و١٥ أبريل ١٩٥٦ أي لمدة ٦ أيام ثم شغل منصب الوزير الأكبر أي رئيس الوزارة مدة سنة وثلاثة أشهر ونصف منذ ١٥ أبريل ١٩٥٦ وحتى ٢٥ يوليو ١٩٥٧ وفي تلك الفترة جمع مع رئاسة الوزارة وزارتي الدفاع

والشئون الخارجية، وكان هذا في وجود ملك هو محمد الأمين باي تونس على نحو ما فعل المصريون بوزارتي علي ماهر ومحمد نجيب في وجود ملك موصى عليه هو الملك أحمد فؤاد الثاني (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ هكذا كان الرئيس الحبيب بورقيبة رئيسا للوزراء منذ أبريل ١٩٥٦ وحتى ٢٥ يوليو ١٩٥٧ حين ألغى منصب رئيس الحكومة وأصبح رئيسا للجمهورية يشغل منصب رئيس الوزارة دون نص على هذا طيلة الفترة من يوليو ١٩٥٧ وحتى نوفمبر ١٩٦٩.

ومنذ ٢٥ يوليو ١٩٥٧ أصبح الرئيس الحبيب بورقيبة رئيسا للجمهورية (بل أول رئيس للجمهورية التونسية) وهو المنصب الذي بقي فيه ثلاثين عاما وثلاثة أشهر ونصف حتى ٧ نوفمبر ١٩٨٧ حين أزاحه زين العابدين علي وحدد إقامته وسجنه وأبقاه هكذا حتى توفي في ٦ أبريل ٢٠٠٠ في نهاية القرن العشرين.

ربما يلمح القارئ الآن أن الرئيس الحبيب بورقيبة المولود في ٣ أغسطس ١٩٠٣ كان قد اختصر تجربة جمال عبد الناصر في سنة واحدة (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) بدلا من سنتين (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦) وهكذا فإنه إذا كان عبد الناصر قد أصبح رئيسا للجمهورية في يونيو ١٩٥٦ (بعدما كان رئيسا للوزراء) فإن الرئيس الحبيب بورقيبة أصبح رئيسا للجمهورية في يوليو ١٩٥٧ (بعدما كان رئيسا للوزراء في ١٩٥٥) لكن الرئيس نجيب كان قد جمع المنصبين بسهولة في ١٩٥٣ نظرا لما كان الرئيس محمد نجيب يتمتع به من حب جارف، أتاح له أيضا أن يجمع رئاسة الجمهورية مع رئاسة مجلس قيادة الثورة ومن قبلها أن يجمع رياسة الوزارة مع قيادة القوات المسلحة.

* * *

١١
عشرون سببا تجعلني أدعو الله بالرحمة للرئيس التونسي السبسي

من المتفق عليه عند من استوعبوا تاريخ الإسلام أن منطلقات الفكر الانساني في الدول الإسلامية المتعاقبة وحضاراتها المزدهرة في المشرق والمغرب لم تعرف ذلك النمط المستحدث من التفكير السياسي الإمبرياإلى الراهن الذي تلا عصر المستعمرات وتظلل بمسحة من الفهم البشري للدين على نحو يقتصر في تحكيم القيم الدينية على ثنائية الولاء والبراء فحسب؛ وهو نمط يوتوبي فاضل يظن أن من واجبه أن يدير الدنيا كلها في ما يتطلبه مدار هذا المحور الجوهري والمنطقي؛ بكل ما في هذه الإدارة من حدة وشدة.

ومن ثم فإن الفهم يبدو وكأنه يريد أن يختزل الحياة العامة في اللونين الأسود والأبيض فقط؛ على حين أن تاريخ الفكر الانساني في دول الإسلام المتعاقبة وحضارته المزدهرة لم يقر هذا النمط مع احترامه له؛ وإنما تعطينا القراءة النافذة لهذا التاريخ أمارات متعددة على رحابته التي صنعت بفضل الفقه وأصوله آفاقا متعددة لتقدير الصواب والاجتهاد والموازنات والتدرج والتأقلم؛ وقد أنجزت الحضارة الإسلامية هذا التحدي الأمثل بعيدا عن المناطق الخطرة التي تحيط بما تفرضه الأيدولوجيا أو تشجعه الديماجوجيا أو تتطلبه البيداجوجيا.

أما مقولة هذا الرئيس عن مرجعية الدولة إلى الدستور فليس المقصود بها عنده ولا عند غيره من العلمانيين [أو غيرهم] أنهم يستبدلون شيئا بشيء وإنما هم بحكم الآلية البشرية التي يعالجون بها صياغة أمور التشريع يؤسسون أحكامهم القانونية والتقنينية على مواد دستورية وأحكام وقتية؛ وفي هذا السلوك والقول تنزيه للقرآن الكريم ونصوصه عن أن تكون بمثابة نصوص يتداولها برلمان يشرع قانونا؛ أو رجل قانون يصوغ قرارا.

وليس معنى هذا أن قانونا يصدره برلمان دولة ما في سنة ما قد غير شرع الله وإنما هو خالفه وكان أقل من أن يطبقه ويفهمه؛ وهذا يتسق مع طبيعة البشر الخطاة الذين لم يصلوا إلى الصلاح والتقوى؛ والبرلمان بطبعه ليس مجمعا للصالحين ولا للتقاة وإلاَّ لانتهى دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ وليس معنى أن المستشفى يضم مرضى أن الطب فاشل بل المعنى أن الحياة بها مرض يحتاج الطب؛ وكذلك التشريعات تحتاج

علاجا وشفاء، ومن هذا المنظور فإننا نستطيع أن ننظر لتاريخ الرئيس التونسي الراحل في ضوء معطيات زمنه فنترحم عليه عشرين مرة لا مرة واحدة.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه حقن دماء مواطنيه ولم يُلبّ مبرّرات الدعوات الإمبريالية والصهيونية إلى البدء في إجراءات تُسمّى خداعاً بالحفاظ على هيبة الدولة بينما هي في جوهرها لا تعدو أن تكون صورة من صور مذابح الترهيب والاستئصال والإبادة والسيطرة وقد رفضها هذا الرئيس حين طلب مُموّلو الثورات المضادة منه أن يسيل الدماء أنهاراً كما حدث في بلاد أخرى.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يتآمر على جيرانه من أبناء الشعب الليبي بأية صور من صور التآمر التي كان حلفاؤه الغربيون يلحون عليه من أجل فتح الباب إليها ثم التورط فيها.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يسجن الالاف ولا العشرات بلا سبب إلا خوفه من ظله فقد كان له من ثقته بخالقه الغفور الرحيم ما حماه من عبادة الشيطان.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يندفع في الطريق الخطر الذي يسول له أن يقسم شعبه إلى قسمين وإنما حافظ بكل أمانة على الوحدة الوطنية.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه وهو العاشق للفن العارف بقوة تأثيره لم يوظف الفن لحظة واحدة في الشحناء والبغضاء.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يفكر على الاطلاق في أن يقبل السير في أي طريق يفرط في أية قطعة من أرض وطنه مع أن الضغوط كانت ملحة والاسباب كانت سهلة الاستدعاء.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يرتهن قرار تونس بيد الأعراب والأغراب لحظة واحدة وظل قراره تونسيا صرفا مع ما كلفه هذا من ضغط عصبي. ونفسي لم يكن قبل لسنه ولا لصحته به لكنه تحمله في جسارة.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يمد يدا باطشة بالقوة والجبر والمباغتة إلى مال الدولة ولا إلى مال فئات من الشعب؛ ولا إلى مال المعدمين والمتقاعدين والعجزة.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يمنع الصلاة ولم يهدم المساجد ولا الزوايا.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يحارب الحج ولا العمرة.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يمنع صلاة التهجد ولا القيام.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يخفض قيمة عملة وطنه بقرارت رعناء ولم يخفض قيمة ثروة بلده ومواطنيه.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يكبل وطنه بالديون؛ ولم يقض على مستقبل الأجيال القادمة من أبناء شعبه استجابة للطامعين في الاستيلاء على أصول الوطن من الحلفاء الممارسين للرأسمالية المتوحشة.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يدمر قدرات دولته على تنمية ونشر وإتاحة خدمات الصحة والتعليم والنقل والإسكان والطاقة المقدمة للفئات البسيطة من أبناء وطنه.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يمض في أي طريق وهمي يهدر فيه المليارات من أجل لقطة؛ كما انه لم يحرق الثروات الوطنية من أجل خدعة.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يسلط الأراذل من الأميين والجهلة على شعبه ليل نهار ليشوهوا العقول بالأكاذيب والخرافات والمفتريات.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يشرد خيرة أبناء الوطن.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يقتل صفوة شباب الوطن.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يهن العظماء.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يتعقب المخلصين.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه لم يقرب المجرمين والقتلة وسفاكي الدماء.

أدعو الله بالمغفرة للرئيس التونسي لأنه كان قريبا جدا من الصدق بعيدا جدا عن الكذب وهي مكرمة من مكارم الأخلاق أصبحت نادرة في عصر يصور الدعارة شرفا والقبح جمالا والافتراء عدلا والغطرسة سماحا.

* * *

الباب الرابع شرق إفريقيا

١٢
هيلاسيلاسي
الإمبراطور الذي دفنوه تحت حمام الديكتاتور

نبدأ بالقول بأن الإمبراطور هيلاسيلاسي عاش ثلاثاً وثمانين سنة وشهراً ١٨٩٢-١٩٧٥، أي ما يقرُب من ألف شهر بالتمام، ونثني بالقول بأنه ولد في نفس اليوم الذي كانت مصر تحتفل فيه بعيد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقد تصادف أن بلغ الستين من عمره الطويل يوم قيام ثورة ١٩٥٢، ثم عاش مع الثورة ٢٣ عاماً متصلة، ولا نقف بالقبول عند هذا الحد، وإنما نُشير إلى مفارقة مهمة وهي أنه ظلّ جاراً لصيقاً لمصر حتى مطلع عام ١٩٥٦، حين اعلن استقلال السودان عن مصر وتقلّص نفوذ حاكم مصر إلى مساحة شمال وادي النيل وحده، فانقطعت جيرة مصر للإمبراطور هيلاسيلاسي، واقتصرت أو وقفت على حدود السودان.

ولم يكن هيلاسيلاسي وحده في هذا الوضع، وإنما شاركته وتشاركت مع إثيوبيا في انقطاع الاتصال الأرضي مع مصر ستة بلاد إفريقية أخرى هي أوغندا وكينيا والكونجو الديموقراطية وتشاد وإفريقيا الوسطى وأريتريا، وهي مأساة مؤسفة ومحزنة إلى أبعد حد، ولا يتذكَّرُها أي مصري مخلص لوطنه إلا بعيون دامعة، حين يتأمل تاريخ أي دولة من هذه الدول الإفريقية السبع التي كانت جيرانا للملك فاروق وللرئيس محمد نجيب والحكام السابقين عليهم وجاءت تطورات تداول السلطة فيما بين قادة ثورة يوليو فلم تُصبح هذه الدول السبع جيرانا للرئيس جمال عبد الناصر.

لم يكن من العائلة الإمبراطورية وإنما متآمرا عليها

في حقيقة الأمر التي ربما يدهش لها القراء دهشة واسعة المدى عميقة المصدر، فإن الإمبراطور هيلاسيلاسي لم يكن سليل عائلة ملكية ولا إمبراطوريه، ولا أسرة حاكمة لإثيوبيا، وإنما تمّ تصويره على هذا النحو في الأدبيات العربية والناصرية عن جهل شديد وعن استسهال أو ما يسمى في اللغة الدارجة بالاستقراب التلفيقي، وذلك على نحو ما كانت كثير من فصول التاريخ تُكتَب في عهد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فمن الطريف أيضا أن الشاه محمد رضا بهلوي لم يكن من أسرة حاكمة ولم يحكم قبله من أسرته إلا والده هو فقط، ومع هذا فقد كانت الأدبيات التاريخية المصرية تستسهل، بل تستيغ ترديد القول بأنه وريث عرش الطاووس الذي يمتد إلى سبعة آلاف سنة، وكذلك كانت مصر الرسمية تفعل مع

الإمبراطور هيلاسيلاسي بقدر من المجاملة المفتعلة والمتناقضة في ذات الوقت، مع ما عرف عن مصر من الدعوة الملحة إلى إحلال الجمهورية محل الملكية أو الرجعية على حد التعبير الناصري المفضل.

وعلى أيه حال، فإن الإمبراطور هيلاسيلاسي كان ابناً لحاكم (عمدة) مدينة حبشية إسلامية شهيرة هي هرر، وقد كان والده حاكم هذه المدينة لفترة من الزمن، ثم أصبح هذا الوالد وزيراً لخارجية الإمبراطور منليك الثاني.

كان الإمبراطور منليك الثاني (١٨٤٤ ـ ١٩١٣) أهم أباطرة الحبشة في العصر الحديث، فهو مؤسس مدينة أديس أبابا (الزهرة الجديدة)، وقد نجح في أن يُحقّق دولة ذات حدود، وذلك بالاتفاق مع إيطاليا التي كانت تستعمر الصومال، ولأنه كان ذا عزيمة، فقد عقد معاهدة مع الإيطاليين ١٨٨٩ لكنهم لم يلتزموا بها في ظل مطامعهم في شرق إفريقيا التي كانت تتصور تكوين إمبراطورية إيطالية جديدة من الصومال وإثيوبيا وأرتيريا معا.

وقد ألغى الإمبراطور منليك الثاني المعاهدة ١٨٩٣ مع إيطاليا، بعد اعتداءاتها المُتكررة على أرض الحبشة ثم حارب الإيطاليين وانتصر عليهم في ١٨٩٨، مُسجلا أول نصر إقليمي للحبشة على الإيطاليين.

كان الإمبراطور منليك الثاني انشائياً من الطراز الأول، وكما ذكرنا، فإنه هو الذي أنشأ العاصمة أديس أبابا، كما أنه هو من أنشأ خط السكة الحديدية بين أديس أبابا وجيبوتي، فضلاً عن كثير من المرافق المدنية الحديثة، وكان شبيهاً إلى حد ما بمُعاصره الخديو عباس حلمي الثاني الذي حكم مصر ما بين ١٨٩٢ و١٩١٤ بينما حكم هو إثيوبيا فيما بين ١٨٨٩و١٩١٣.

قصة الامبراطور المسلم حفيد ووريث الامبراطور منليك

زوّج الإمبراطور منليك الثاني ابنته من محمد على أمير إمارة الحبشة المسلمة ليُحقّق بهذا الزواج توافقاً مسيحيا إسلامياً في الحبشة، أنجبت هذه الابنة وريثاً لعرش الجد منليك هو ليج أياسو الذي جمع في شخصيته بين الإسلام والمسيحية، لكنه كان فيما يبدو أصبح مع مضي الوقت أميل إلى جوهر الإسلام، وذلك بسبب ما لقيه من

تآمر الغرب عليه، وقد حكم في الفترة ما بين ١٩١٣ ـ ١٩١٦ (وهي الفترة التي شطبتها مراجع غربية من تاريخ إثيوبيا) ونقل عاصمة حكمه إلى مدينة هرر الإسلامية، وتعاون مع الزعيم الصومالي محمد عبد الله حسن، الذي كان من أشد مقاومي الإنجليز.

ومع أن هذا الإمبراطور ليج أياسو ورث الحكم عن جده الذي يعُده الغربيون من السلالة السليمانية، فإن الدول الغربية شنت حرباً عليه واضطرته وهو صاحب العرش الرسمي والوريث الحقيقي إلى أن يهرب من الحبشة إلى أريتريا، وفي ١٩٢١ تمكنت هذه القوى من خلال العميل الذي سمي بعد ذلك إمبراطوراً وهو هيلاسيلاسي نفسه من القبض عليه وسجنه ثم قتله قبل مطلع الثلاثينات.

في عدد من الروايات الضعيفة تضطرب صورة انتماء الإمبراطور منليك نفسه، فبعض هذه الروايات تبالغ فتقول إن الإمبراطور منليك لم يكن إثيوبي الأصل وإنما ينتمي إلى أذربيجان إيران، وإن والدته الكنداكة ميكادا زنجية من القرم، كانت ظروف السياسة قد منحتها مدينة نفادة في مصر.

وبهذا فإن الكنداكة في هذه الروايات مصرية نفادية، ومن الطريف أن في مصر عائلات تنتسب باللقب إلى نفادة، فتُسمّى بالنفادي، ومن المنتميات إليهذه العائلات على سبيل المثال السيدة سلفيا النفادي التي عملت رئيسة لتحرير مجلة البيت التي صدرت عن الأهرام في عهد الأستاذ إبراهيم نافع.

كيف استولى الإمبراطور هيلاسيلاسي على الحكم

كان اسم الإمبراطور هيلاسيلاسي حين وُلد: تفري مكونن، وظل هذا اسمه حتى بدأ مرحلة الوظائف العليا وأصبح أميراً، فأصبح يُنادى بالراس تفري، أي الأمير تفري، ذلك أن الراس في اللغة الأمهرية تعني الأمير وفي الصحف المصرية الصادرة في العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن نجد الإشارة إليه باسم الراس تفري، وأحيانا ما يتصوره القارئ المثقف باسم الرأس تافري، بإضافة الهمزة من باب تعظيم اللقب وإعطائه مسحة من اللغة العربية في التعبير عن سلطة حاكمة أو الانتماء إليها.

بدأ الراس تفري استيلاءه على حكم إثيوبيا، بعد أن تمكّن كما ذكرنا من خيانة امبراطور الحبشة المسلم ليج أياسو الذي هو الوريث الشرعي وحفيد الامبراطور

منليك، وهي خيانة مكنت من سرقة العرش بتواطؤ غربي، وهي، كما وصفناها من قبل، صفحة سوداء من الصفحات التي تُخفيها الأدبيات الغربية، ومن تم تُخفيها الأدبيات المصرية الناقلة عن الغرب.

وفيما يبدو، فقد كانت للراس تافري نفسه أصول إسلامية من ناحية والدته، مما ساعده على أن يخدع مسلمي الحبشة وينال ثقتهم قبل أن ينقلب عليهم وعلى إمبراطورهم ويتولى الحكم بمعاونة الغربيين من الفرنسيين والبريطانيين الذين كانوا حريصين أيضا على مناوأة إيطاليا، وعدم تمكينها من الانفراد على المدى الطويل بالقرن الإفريقي.

وفي ١٩٢٨ تمكّن الإمبراطور هيلاسيلاسي، وكان لا يزال على اسمه القديم من إعلان نفسه ملكاً، وفي ١٩٣٠ تمكّن من تنصيب نفسه إمبراطوراً باسم الإمبراطور هيلاسيلاسي، وفيما بعد أضفى على اسمه لقب "الأسد القاهر من سبط يهوذا المختار من الله ملك إثيوبيا"، وأقام احتفالات دُعيت إليها مصر ومثّل مصر فيها حافظ حسن باشا وصليب سامي باشا، على نحو ما روينا في كتابنا "على مشارف الثورة".

اقتداؤه بالملكية المصرية في عهد صدقي باشا

بدأ الإمبراطور هيلاسيلاسي حكمه لأثيوبيا بوضع دستور في ١٩٣١، وكان مقتديا إلى حد كبير بالوجه الأوتوقراطي لا الديموقراطي من نظام الملكية في مصر، وقد وضع هذا الدستور عقب وضع دستور إسماعيل صدقي باشا ١٩٣٠ المفرط في الأوتوقراطية، وأخذ الإمبراطور هيلاسيلاسي ينتهج ما نعرفه اختصارا على أنه نهج الحكومات المصرية الإدارية في التعامل مع المجتمعات الغربية ذات الأطماع القديمة والمُتجدّدة في إفريقيا.

وقد نجح في أول حياته فيما بعد الحرب العالمية الأولى، في أن يحوز تأييد فرنسا له ليكون رجلها في الحبشة، وأن يقرن هذا بعدم ممانعة ألمانيا، ومن ثم فإنه بدأ يستكمل مظاهر الدولة والعلاقات الدبلوماسية مع الدول الأخرى.

وفيما بعد ذلك اعتمد على بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية اللتين أجادتا توظيفه في سياستهما الإمبريالية من دون أن يجني لبلاده فائدة مقابلة، اللّهُمَّ إلا اطمئنانه على كرسيه الوثير.

الإمبراطور هيلاسيلاسي فقد عرشه مرتين وعاد إليه

ومن الطريف أن هذا الإمبراطور هيلاسيلاسي الصناعي العصامي فقد عرشه مرتين كما سنرى، وعاد إليه في هاتين المرتين، وذلك بالطبع قبل أن يفقده في المرة الأخيرة بلا عودة:

• كانت المرة الأولى قبيل الحرب العالمية الثانية، حين تمكنت إيطاليا في عهد الزعيم موسوليني رئيس الوزراء من ضم بلاد الحبشة تحت تاج الملك الإيطالى فيكتور عمانويل، وهرب الإمبراطور هيلاسيلاسي وبقي هارباً حتى أعاده الإنجليز إلى عرشه في ١٩٤١.

• أما المرة الثانية فكانت في ١٣ديسمبر ١٩٦٠ حيث قامت ثورة أرتيرية معارضة تبعتها ثورة إثيوبية، بينما كان الامبراطور يقوم بزيارة إلى جنوب أمريكا، وقد استمرت الثورة (التي تمكنت من خلعه) أربعة أيام فقط، عاد بعدها إلى الحكم بفضل تأييد القوى الغربية، ونحن نعرف أن هذا التعبير المهذب كان يُستخدم للتعبير عن الإنجازات السرية القوية المرتبطة بالتجاوزات المعهودة للمخابرات الأمريكية.

دور الإمبراطور هيلاسيلاسي في الحرب الإيطالية الحبشية

نعود إلى تفصيل القول في بدايات صعود أسهم الإمبراطور هيلاسيلاسي في السياسة الإقليمية.

ظلّت الأوضاع هادئة في بلاد الحبشة حتى ١٩٣٥ حين افتعل الزعيم الإيطالى موسوليني الذي كان يُسيطر على الصومال نزاعاً حدودياً مع الحبشة، ومن ثمَّ بدأ في مهاجمة الحبشة، وشن حملة عسكرية ضد الأحباش، وهنا تجلّت مهارة الإمبراطور هيلاسيلاسي السياسية وقُدرته على دخول التاريخ، إذ أنه رفض الانصياع للقوة، وقاد مقاومة شعبية مسلّحة رغم عدم تكافؤ القوة مع الإيطالى ين، وقد رأى أن يهرب بنفسه إلى السودان (أي إلى مصر التي عادة ما ينكر دورها) ومنها إلى بريطانيا.

وفي بعض المصادر أنه بدأ بالهرب إلى الصومال الفرنسي، ثم ذهب إلى القدس، ومنها إلى جبل طارق، وبعدها وصل إلى إنجلترا عن طريق عبارة بريطانية.

ومن لندن بدأ كفاحه الدولي، وتمكّن هذا الإمبراطور هيلاسيلاسي الشاب رغم ضعف إمكاناته من أن يحصُل على قرار من عُصبة الأمم (وهي الهيئة الدولية التي كانت موجودة قبل نشأة الأمم المتحدة) يُؤيد حقه وحق بلاده وينُصُّ بالعبارة الصريحة على أن إيطاليا دولة مُعتدية، بل فرضت هذه العُصبة عقوبات صريحة على إيطاليا في مارس ١٩٣٦، لكن الإيطاليين قابلوا هذا القرار بمزيد من الاعتداء حتى إنهم أعلنوا ضم الحبشة إلى مُمتلكاتهم في مايو ١٩٣٦، بل أعلنوا أن الملك الإيطالى فيكتور عمانويل الثالث هو امبراطور الحبشة.

في المقابل، فإن الرجل الذي تنبأ للإمبراطور هيلاسيلاسي بالمجد، وهو الناشط ماركوس جارفي، فرّ من الحبشة بعد غزو إيطاليا لها واصفا هيلاسيلاسي بـ "الجبان" وانتهز الفرصة فانتقد ممارسات "العبودية" في عهده، حيث كانت لا تزال سائدة حتى ذلك الوقت ولم يتم إلغاؤها إلا عام ١٩٤٢.

وفي مقابل هذا التعنت الإيطالى، لم تجد عصبة الأمم حرجاً في أن تتراجع عن موقفها المناهض لإيطاليا، وكان هذا التراجع صورة مُبكّرة وحاسمة من صور سقوط عصبة الأمم التي سرعان ما فقدت وجودها في ظل وجود رغبة أمريكية دءوبة ومُستترة في إنشاء هيئة أخرى بديلة.. ومن العجيب أن عصبة الأمم لم تجد رجلاً رشيداً يمنعها من أن تُصدر في منتصف ١٩٣٧ قرارها المُخزي برفع العقوبات عن نظام موسوليني، وكان الأمر في هذا شبيهاً إلى حد كبير بموقف الأمم المتحدة الآن من أزمات سوريا وإلى من وغيرهما في ظل الطغيان الإقليمي.

أصبح للحبشة حاكم عسكري إيطإلى هو المارشال جراتسباني، وكان نموذجاً للعسكري الفظ المُتعجرف الذي قتل كثيرا من المواطنين المقاومين للاحتلال، وهدم بعض الكنائس، وأعدم بعض رجال الدين، ومارس أبشع سمات الحكم العسكري، وكاد الأمر يستمرفي تصاعد لولا هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية.

عودة الإمبراطور هيلاسيلاسي وتتويج الانتصار واحتلال إثيوبيا لأرتيريا

ومع هزيمة إيطاليا، تمكّن الإمبراطور هيلاسيلاسي الذي كان يعيش في الخارج من أن يعود إلى وطنه ليقود مقاومة جديدة ضد عدو أصبح ضعيفاً وغير مرهوب

الجانب، وهكذا أصبح الإمبراطور هيلاسيلاسي صورة إلى حدِ ما من الزعيم الفرنسي ديجول ومن الزعماء الآخرين الذين هزمتهم دول المحور، وأنصفتهم نتيجة الحرب العالمية الثانية المُتمثلة في انتصار الحلفاء.

وعلى نحو ما يقتدي المظلومون بالظالمين، فإن الإمبراطور هيلاسيلاسي رأى أن يفعل في أرتريا ما فعلته إيطاليا في بلاده، وهكذا سارع في البداية بإعلان اتحاد بين بلاده وبين أرتريا في ١٩٥٢، لكنه سرعان ما استغل الظروف المواتية التي لم يقدرها غيره، وكان في مقدمة هذه الظروف، بل كان أهم هذه الظروف، ما اعترى جاره الأقوي الذي هو مصر من تطورات جديدة أدت إلى انكفاء هذا الجار الجبارعلى نفسه بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو ما انتهى بالفعل بعد فترة قصيرة من تمكن الرئيس عبد الناصر(وإزاحة الرئيس محمد نجيب) بإعلان انفصال السودان عن مصر تحت مسمى الاستقلال.

وفي حقيقة الأمر، فإنه منذ استولى الجيش على مقدرات الأمور في مصر، وجد الإمبراطور هيلاسيلاسي الظروف مواتية له للخروج إلى الساحل الشرقي لإفريقيا، ليكون كتلك الدولة الكبيرة المؤثرة والقائمة في مصر والسودان، بدلا من وضعه كدولة داخلية لا سواحل لها، وكان قد أعلن في ١٩٥٢عن الاتحاد مع أرتريا مع حفظ حقوقها في الاستقلال والحكم الذاتي، وأن يكون لها برلمان خاص بها، لكنه سرعان ما نفذ خطته الخبيثة، بمشورة ودعم غربيين، وأعلن عن ضم أرتريا إلى اثيوبيا تحت حكمه هو.

أمريكا رتبت الأمور لتفقد مصر السودان على حين تتضخم إثيوبيا بضم أرتيريا

وظفت حكومات الغرب زعامة الرئيس المصري جمال عبد الناصر بأفقه المحدود وخوفه من الإسلام في تكميم ثورات المسلمين في أرتيريا لصالح الإمبراطور هيلاسيلاسي، كما فعلت ذلك في زنجبار لصالح القس جوليوس نيريري وفي قبرص لصالح مكأربوس وفي السنغال لصالح الرئيس سنجور.

ومن الجدير بالذكر، أن المخابرات البريطانية كانت قد قدمت أقصى قدر ممكن من الخدمات المخلصة للإمبراطور هيلاسيلاسي في هذه المغامرة الاستعمارية المحسوبة من خلال عملها الدؤوب على إثارة النعرات الدينية والقبلية في ارتيريا.

حدث هذا في نفس الوقت الذي كانت مصر تتخلى فيه عن السودان، وتتخلى بالتإلى عن جيرتها المباشرة وحدودها المباشرة مع كل من أرتيريا وإثيوبيا، بل إنها تخلت أيضا عما كانت تملكه من تراث عميق وناعم كان يقضي بتبعية الكنيسة الاثيوبية (الروحية والفعلية) للكنيسة المصرية، ومن ثم تنشأ على يدي الإمبراطور هيلاسيلاسي في اثيوبيا كنيسة باسم جديد/قديم يُغازل عقيدة المسلمين في هدوء، ويناكفهم كما يناكف الكنيسة المصرية في هدوء أيضاً، وكان هذا الاسم هو كنيسة التوحيد الارثوذوكسية الإثيوبية.

وفي هدوء شديد وبخُططٍ مُتدرّجة، نجح الإمبراطور هيلاسيلاسي في أن يفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية، ومع أن الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية لم توافق على هذا، فإن أحداً لا يعرف أنها لم توافق، ذلك أن الرئيس عبد الناصر، فيما يبدو بوضوح من تطورات الأحداث، وافق على هذا الفصل من دون أن يهتم برأي الكنيسة المصرية أو يفكر في السؤال عنه.

وهكذا تدخلت السياسة في الدين دون أن يستطيع رجال الدين أن يقولوا شيئاً، وأصبحت هناك كنيسة أثيوبية تعترف بنفسها، ولا تعترف بتبعيتها لكنيسة الإسكندرية (المصرية)، بينما لا تعترف الكنيسة المصرية الأرثوذوكسية (كنيسة الإسكندرية) بانفصال كنيسة الحبشة عنها حتى الآن.

وهكذا كانت قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ تنفذ تخطيطا أمريكيا مستترا (لا تدري قيادتها حدوده ولا جذوره)، وكان لهذا التخطيط نتيجة جوهرية قاتلة جعلت الدولة المصرية في عصر الحسابات الغائبة تفقد أكثر بكثير من ضعف مساحتها الباقية في الوقت الذي تضاف فيه دولة كاملة إلى إثيوبيا باسم الاتحاد الذي سرعان ما يتحول بتواطؤ دولي إلى ضم بل واستعمار كامل.

علاقة الإمبراطور هيلاسيلاسي المعقدة مع الرئيس جمال عبد الناصر

كانت علاقة الإمبراطور هيلاسيلاسي بالنظام الناصري في مصر معقدة إلى أبعد حدود التعقيد الظاهر والباطن، ولا تزال هذه العلاقة بحاجة إلى فهم مسرحي يتعقب طبقاتها بالمسح والاستقصاء والإضاءة. فمن الطريف الذي لم تذكره كتُب التاريخ حتى

الآن، أنه تصادف في بداية عهد ثورة ١٩٥٢ أن جرت حركة ديبلوماسية (أي تنقُّلات وتعيينات في سفراء مصر في الخارج) فكان من مُقتضيات هذه الحركة الدبلوماسية أن عُيّن السفير إسكندر إبراهيم الوهابي، ليكون سفيراً لمصر في بلاد أثيوبيا، وكان اسم السفير كما يرى القارئ من الأسماء التي لا تدل للوهلة الأولى على أن صاحبها مسيحي، لكنه كان مسيحياً، وكان هذا السفير صديقاً حميماً لأستاذ أساتذتنا الدكتور محمد عبد الوهاب مورو أستاذ الجراحة وعميد كلية الطب ورئيس جامعة القاهرة، ومن هنا عرفتُ اسمه وقصته، فلما ذهب السفير لتسلّم عمله في إثيوبيا، وعرف الإمبراطور هيلاسيلاسي بديانة السفير توجه لزيارته في سفارة مصر تكريماً له، فانزعج الرئيس جمال عبد الناصر من هذا السلوك ونقل السفير إسكندر الوهابي من أثيوبيا على الفور.

ومن الطريف أيضا أنه على عادة النظام المصري وعبقريته في تصوير كل هزيمة على أنها نصر، فقد فعل الرئيس عبد الناصر شيئاً من هذا القبيل في الموضوع الكنسي الذي خذل فيه كنيسته الوطنية، ذلك أنه عندما حان موعد افتتاح الكنيسة الكبرى المُسمى بالكاتدرائية المرقسية في أرض الأنبا رويس بالعباسية، والتي أقيمت على نفقة الدولة المصرية، قرّر الرئيس عبد الناصر دعوة الإمبراطور هيلاسيلاسي لحضور هذا الإفتتاح الذي تم في يونيو ١٩٦٨.

وهكذا ظهر الإمبراطور هيلاسيلاسي في الافتتاح إلى جوار الرئيس المصري، وكأنه في الوضع الطبيعي الذي يتصوره أتباع الكنيسة المصرية كواحد من رعاياها، بينما كان هذا الظهور نفسه، في حقيقة الأمر، وبالمعايير القانونية والبروتوكولية، بمثابة اعتراف مصري رسمي باستقلال الكنيسة الإثيوبية، وبسلطان الإمبراطور هيلاسيلاسي وكنيسته، حتى إنه تلقى الدعوة وحضر الإحتفال باعتباره ضيفاً لا تابعاً وباعتباره رأس دولة ذات كنيسة، وقد جلس كما أتاح له البروتوكول الرسمي إلى جوار رئيس الجمهورية رأساً برأس، بما يعني أن كنيسته أصبحت برأس الكنيسة المصرية التي لم تعترف حتى ذلك الحين بانفصالها!!

ظلت علاقة الإمبراطور هيلاسيلاسي بالرئيسين عبد الناصر والسادات في الإطار المحترم لعلاقة الشخصيات الكبيرة التي تبدو محتفظة برونق صاف أو رونق يخلو على الأقل من أية خلافات ظاهرة، وكان هذا طبيعيا وسهلا بحكم فارق السن، فقد كان الإمبراطور هيلاسيلاسي يكبرهما بأكثر من ربع قرن، ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور هيلاسيلاسي كان قد قام بزيارة رسمية إلى مصر في ١٩٦٣ تلقى فيها تكريما رفيعا، وقد زار بيت الرئيس جمال عبد الناصر وصافح أولاده وجذب الذكورمنهم فقبلهم، وقد بلغ تكريم مصر له، أن كان رئيس بعثة الشرف المرافقة له هو السيد زكريا محيي الدين نائب رئيس الجمهورية.

يذكر أيضا أن الإمبراطور هيلاسيلاسي كان من الزعماء الذين مُنحوا قلادة النيل العظمى.

النجاح المصري في استمالته لإبعاده عن الانضمام إلى دعم إسرائيل بفاعلية

لا يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما تزداد الصورة تعقيداً إذا علمنا أن الإمبراطور هيلاسيلاسي كان إمبراطورا ورئيساً لدولة تضم يهوداً من الذين يُخطّط الكيان الصهيوني لنقلهم إلى أرض فلسطين لتقوية وجود الكيان الصهيوني، وهكذا كانت علاقات مصر بأثيوبيا (على المستوى الفني) تتحسّبُ لأي قرار أثيوبي وتبعاته فيما يتعلّق بالمكونات الديموجرافية للكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وقد اقتضى هذا مجاملات لا حصر لها للإمبراطور ليأخذ (من باب المجاملة) مكانا بروتوكوليا على حساب المد الناصري المقبول إفريقيا، واعتمدت الناصرية في احتواء الإمبراطور هيلاسيلاسي على جهود الرئيس الغيني الذكي أحمد سيكوتوري، وتنازلت مصر ومعها الدول العربية والإسلامية للإمبراطور عن مكانة دولة المقر لمنظمة الوحدة الإفريقية.

وكان الإمبراطور هيلاسيلاسي في غاية السعادة بهذا الطراز من المجاملة، ومن الإنصاف أن نقول إن تلك المرحلة جنّبت العرب المحاربين لإسرائيل قدراً كبيراً من خيانات محتملة كان من الوارد حدوثها من قبل بعض سلطات إثيوبيا.

ووصل الأمر في هذا الصدد أيضا إلى أن الرئيس أنور السادات استقبل الإمبراطور هيلاسيلاسي استقبالا تاريخياً في مصر في مايو ١٩٧٣، في إطار سياسة تعبئة الرأي العام العالمي ضد استمرار وتعسف وممارسات الاحتلال الإسرائيلي.

سياسته الإفريقية بدأت نشطة بالتعاون مع سيكوتوري

في عصر الحرب الباردة حاول الإمبراطورهيلاسيلاسي أن يبدأ سياسة إفريقية نشطة، بعد أن وجد نفسه مضطرا بذكاء إلى الانضمام إلى ما سمي بحركة عدم الانحياز، وهكذا وثّق علاقاته المظهرية بعدد من زعماء إفريقيا، ولجأ إلى التقارب مع الزعيم الغيني أحمد سيكوتوري.

شارك الإمبراطور هيلاسيلاسيفي عدد من المؤتمرات الإفريقية التي أخذت تدعو إلى الوحدة والتعاون بين أقطار إفريقيا كمؤتمر مونروفيا في ليبيريا عام ١٩٦١، ولاجوس عام ١٩٦٢، والذي انبثق عنه مشروع منظمة إفريقيا، ثم شارك في مباحثات ومفاوضات تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية التي تجلّت صورتها في مؤتمر انعقد في أديس أبابا عاصمة إثيوبيا في مايو ١٩٦٢ بحضور وفود ثلاثين دولة إفريقية، وقد تجلّى ذكاء الإمبراطور هيلاسيلاسي وقُدرته على الإقناع والحسم والحث على العمل الجاد في خطابه الافتتاحي لهذا المؤتمر التاريخي، وقد وصلت به البلاغة إلى القول بأنه يتمنّى أن يعيش هذا الاتحاد ألف عام.

وفي خطابه الافتتاحي قال الامبراطور الإثيوبي أيضا: "لا يمكن أن ينفض هذا المؤتمر دون تبني ميثاق إفريقي موحد، ولا يمكن أن نغادر القاعة من دون إنشاء منظمة إفريقية واحدة... فإذا ما أخفقنا فسوف نكون قد تخلينا عن مسؤولياتنا تجاه إفريقيا وشعوبها، أما إذا نجحنا فهنا وهنا فقط سوف نكون قد بررنا وجودنا".

وبناء على هذا الحماس المدروس تمَّ تكليف الحكومة الإثيوبية بأن تكون هي مقر التصديقات على ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية، وأن تكون مسئولة عن تسجيل ذلك الميثاق في الأمم المتحدة، كما اختيرت العاصمة الإثيوبية (كما أشرنا) لتكون مقراً للمنظمة التي عاشت فترة طويلة بنفس الاسم حتى تغيّر اسمها إلى الاتحاد الإفريقي في ٢٠٠٢.

ومن الطريف أن الإمبراطور هيلاسيلاسي في فترة عنفوانه نجح في أن يكون الوسيط المقبول من الجزائر والمغرب في حرب الرمال ١٩٦٣ عن طريق اتفاقات رعاها هو، وهي اتفاقات باماكو الشهيرة، ولم ينل الرئيس جمال عبد الناصر شرف رعايتها، لأنه كان للأسف الشديد قد تورّط في الوقوف العسكري ضد المغرب.

لكن الإمبراطور هيلاسيلاسي كان، مع مضي الزمن وبحكم سنه ومللله من ممارسات العسكريين، قد بدأ يتباعد عن الوجود الإفريقي النشط، ولم تكن ثقته في الناصرية ولا ما تبقى منها ولا ما تجدد بعدها، كفيلة بالبناء من أجل أي تحالف استراتيجي، وهو أمر مؤسف على كل حال.

سنوات حكمه: استقرار بلا تنمية

على الرغم من الاستقرار الظاهري الذي عاشته إثيوبيا في ظل حكم الإمبراطور هيلاسيلاسي، فإن ارتفاع مستوى الدخل في دول العالم من حولها وبعيداً عنها جعلها تبدو واقفة عند حدود القرون الوسطى، كما دفع بحكوماتها المحدودة الحركة والأفق إلى الانشغال بممارسة الفساد عن توجيه الجهود نحو التنمية الحقيقية.

قلنا إن الإمبراطور هيلاسيلاسي تعرض لانقلاب عسكري في ١٣ ديسمبر ١٩٦٠، وقد عبّر هذا الانقلاب عن معارضة أرتيرية ومعارضة إثيوبية مؤيدة لها، لكن المخابرات الأمريكية والقوى الدولية مكّنت الإمبراطور هيلاسيلاسي، الذي كان يتجول في أمريكا الجنوبية، من أن يعود إلى بلاده وعرشه بسرعة، ومن دون أي تكريس لأيّ نجاح انقلابي رغم ما كان معروفاً عن رغبة الغرب في نشر الانقلابات العسكرية متى توافر لها من يدينون بالتبعية الروحية للغرب والإمبريالية أو يتعشقون الماركسية ومعسكرها الشرقي.

وفي غياب الإصلاحات الهندسية والمالية، تعرضت إثيوبيا للجفاف والمجاعة في مطلع السبعينيات في الوقت الذي كانت الشيوعية الدولية ترى في القرن الإفريقي مساحة كفيلة بأن تنشر فيها ومنها المد الشيوعي استناداً إلى رغبة سوفييتية في التواجد النشط في هذه المنطقة الحساسة وبالموازاة لتواجد متحقق على الشاطئ الآخر في إلى من الجنوبية من خلال الانقلاب الماركسي الذي تمكن من حكم إلى من الجنوبية بالحديد والنار، بعد أن تكرست آثار ومعقبات هزيمة مصر في ١٩٦٧ وتراجع دورها العربي والإقليمي.

ديكتاتور من النوع المتوسط

بطريقة مُجملة نستطيع أن نقول إن الإمبراطور هيلاسيلاسي كان فيما يصفه

الغربيون من دون تشخيص صريح: ديكتاتوراً نمطيا تقليديا من النوع المتوسط، أو فوق المتوسط، فهو لم يسرف في الطغيان إلا على المسلمين الذين كانوا قد وثقوا به عن حسن نية، وإن كان قد أسرف في إحكام القبض على زمام الأمور بطريقة خانقة للتطور الطبيعي، وقد صادفه سوء الحظ حين حدثت المجاعات في سنته الأخيرة في الوقت الذي كان يحتفل به احتفالات باذخة بذكريات إمبراطورية مظهرية.

ويبدو أنه لم يكن واعيا بالقدر الكافي بتطورات العقليات السياسية الشعبية لأبناء إثيوبيا وشبابهم، ولهذا فإنه مع كبر سنه لم يبادر إلى فهم طلبات الثورة التي بدأت في آخر أيامه، بل إنه أسهم بقرارته الخاطئة والسلبية في تفاقم المجاعة التي حصدت أرواح ما يقرب من مليون إثيوبي في بعض التقديرات، أو ما لا يقل عن مائتي ألف إثيوبي في أكثر الإحصاءات تخفيفا من الكارثة التي تسبب فيها، ويبدو أنه لم يكن له حليف قوي وفاعل ودارس يستند إليه في شيخوخته على نحو ما كان له في شبابه حين تحالف مع بريطانيا.

وفي كل الأحوال، فإن سياسات الإمبراطور هيلاسيلاسي التي طالت فترتها في مجاورة لصيقة لحكم العسكر، قد ساعدت على أن يظل الوضع السياسي في اثيوبيا مفتقداً إلى الاستقرار الحضاري، طالما ظلت مصر أوالسودان أو كلتاهما تحت حكم عسكري بأية صورة من الصور، وذلك على الرغم من توهينه الهادئ والمستمر لعلاقة بلاده بمصر والسودان لكن الجغرافيا حاكمة، وكذلك الاقتصاد، وقد صار الأمر في غاية الوضوح، وبخاصة مع الارتفاع الحاضر في قيمة إثيوبيا، حتى إنه ليمكن القول الآن بأن مستقبل إثيوبيا يعتمد أساسا على مستقبل الديموقراطية في مصر والسودان، وعلى الرغم من أن اثيوبيا خطت خطوات رائعة في الديموقراطية وحقوق الإنسان، فإن عدوى الانقلابات العسكرية في القاهرة والخرطوم قد تؤثر عليها بأكثر من كل جهد سياسي صادق نحو تبنّي الديموقراطية، فلا يزال تراث العبث المصري ـ السوداني القديم قادراً على أن يُجدّد محاولاته الشريرة لقلقلة الوضع في بلاد الجيران الأفارقة، وذلك أن العسكر منذ ١٩٥٢ وحدوا جهودهم لقلقلة افريقيا من حولهم لا لتنميتها، ولعسكرتها لا لتحضُّرها، ولتعاون مخابراتها وليس لتضافر علمها.

كان يجيد صناعة الصورة

كان الإمبراطور هيلاسيلاسي يتمتع بقدرات مظهرية عالية، فكان يظهر في جلسته الرسمية مُحاطاً بأسدين وكأنه روّضهما، وواقع الأمر أنه كان دجّنهما أيضا فنزع أنيابهما، وأثقل حركتهما، وكان قادراً على صك كثير من التعبيرات البلاغية والخطابية، ومنها قوله إن عظامه سوف تحكم بلاده من تحت الأرض.

نجح في تقديم نفسه للغرب على أنه عدو للإسلام

من إحقاق الحق أن نقول بلا مواربة إن الإمبراطور هيلاسيلاسي قدم نفسه للغرب باعتباره عدوا للإسلام قادراً على استئصال وجوده ونفوذه في الحبشة، وكان هذا ممّا يُسعدُ المتطرفين في الغرب، لكن هذا التوجه لم يكن يُجبرالغربيين على تمويل مثل هؤلاء الحكام بسخاء، وبخاصة أن مصادر التمويل المتاحة في عصرنا الراهن من الإمارات وغيرها لم تكن مُتاحة في ذلك العصر بمثل ما هي متاحة به الآن من السفه المطلق.

ومجمل القول في الإمبراطور هيلاسيلاسي وعلاقته بالأديان، أنه كان عدواً ظاهراً ومُستتراً للإسلام، كما كان عدواً ظاهراً ومُستتراً للمسلمين، ومع أن الرئيس جمال عبد الناصر كان يتفوق عليه في عداوة الإسلام والمسلمين من أجل الكرسي، فإن الكرسي نفسه ستر عداوة الرئيس عبد الناصر للإسلام، لكن هيلاسيلاسي لم يتمكن من أن يستتر بكرسي مشابه، ومن ثم فإنه آذى نفسه ووحدة وطنه بهذه العداوة، كما أنه ظل تابعاً مطيعاً للغرب من غير أن يُفيد شيئاً جديدا من هذه التبعية في عصر الحرب الباردة التي حضرها أو خاضها كمراقب بلا قيمة ولا إسهام.

وهكذا فإن علاقته بإفريقيا على سبيل المثال سرعان ما تحولت إلى علاقة مظهرية ولم تتعد موقفين اثنين نجح فيهما، وكان من الواجب عليه أن يواصل النجاح فيما نجح فيه، لكنه كان كعادة أمثاله من أسلافه ميّالاً إلى الاستنامة وراحة البال دون أن يحسب حساب التطور الطبيعي أو يُدرك أبعاده.

كيف أصبح الإمبراطور هيلاسيلاسي بمثابة المهدي المنتظر الإفريقي الأسود؟

من العجيب أن الحظ المواتي كان قد أسعف هذا الإمبراطور هيلاسيلاسي بنبوءة

أطلقها رجل دين أسود في أمريكا، بأن حاكما أسود سيظهر في إفريقيا وسيكون هو مخلص العالم، وهكذا تقمّص الإمبراطور هيلاسيلاسي هذا الدور، حتى آمن به كثيرون في أمريكا وأمريكا اللاتينية، وبلغ هؤلاء أعلى نسبة لهم في دولة جامايكا ونسبوا أنفسهم إليه على اسمه القديم الراس تافاري، قبل أن يُنصّب نفسه إمبراطوراً في ١٩٣٠ ويتخذ الاسم الجديد الذي يدل على قوة الثالوث الأعظم، لاجئا إلى تقليد قديم لأباطرة الحبشة حيث كانوا يُسمون أنفسهم بأسماء جديدة عند تتويجهم أباطرة.

وقد بدأت قصة ألوهية الإمبراطور هيلاسيلاسي بنبوءة أطلقها ناشط حقوق السود في جامايكا ماركوس جارفي حين قال لأتباعه عام ١٩٢٠ إن عليهم "التطلع لإفريقيا عندما يتوج بها ملك أسود، حيث يصير يوم الخلاص في متناول اليد، فلما توج الراس تافاري في إثيوبيا اعتبر الكثيرون ذلك علامة على صدق النبوءة. وهكذا أصبح الراس تافاري (في جامايكا، وعلى بعد ٨ آلاف ميل من بلده) بمثابة الإله مجسدا أو "جاه" (بديل المسيح) وصارت إثيوبيا في عقيدة هؤلاء بمثابة أرض الميعاد. وهكذا اكتملت الأسطورة على صورة عملية: فقد اتخذت حركة الراستفاريين الوليدة عندئذ في جامايكا من إمبراطور أرض الميعاد إلهاً.

استمتاع الإمبراطور هيلاسيلاسي بالتأليه

ومن الطريف أن الإمبراطور هيلاسيلاسي نفسه استمتع بهذه الوضعية غير المنطقية، وشجعها من دون أي حياء أو خوف من اللامعقولية، حتى إنه زار جامايكا بنفسه عام ١٩٦٦ ولم يحاول معارضة هذه الحركة بل إنه وقف يحيي الآلاف الذين كانوا يتحرقون شوقا إلى نظرة من إلههم، وكانت من بينهم ريتا مارلي زوجة المغني الشاب بوب مارلي، الذي كان يقوم بجولة في الولايات المتحدة حينئذ، وهي التي قالت العبارة المشهورة: إنه عندما لوح لها الإمبراطور هيلاسيلاسي شاهدت آثار المسامير في كفه، مشيرة إلى أن مشاعرها الدينية تأججت في تلك اللحظة، ولدى عودة زوجها دخلا في طائفة الراستفاريين.

وبعد ذلك بثلاث سنوات بدأ الرستفاريون في الانتقال لإثيوبيا، حيث منحهم إمبراطورها قطعة أرض، وقد وصل عددهم لاحقا إلى ٣٠٠ شخص. ويقال أن طائفة

الراستفاريين يبلغ تعدادها الآن مليون نسمة، كما يتردد الآن أن هذه الطائفة في مجموعها تعتقد في هيلاسيلاسي أحد اعتقادين:

- إما أنه لا يزال حيا وبصحة جيدة
- أو أن جسده صعد إلى السماء

ومن الواضح أن مفكري هذه الطائفة ومنظريها تأثروا ببعض عقيدة المسلمين عن السيد المسيح، وذلك بأكثر مما تأثروا بروايات اليهود والمسيحيين.

ورغم أن معظم طائفة الراستفاريين أدانوا تنظيم الجنازة التي نظمت للإمبراطور في ٢٠٠٠، فإن بعضهم وصل إلى أديس أبابا لحضور الدفن بدعوى أنهم ذهبوا لمجرد المراقبة لا المشاركة، وذكر أحد الراستفأريين السودانيين المقيمين في إثيوبيا وهو راس لومومبا للصحافة أن الإمبراطور هيلاسيلاسي هو مسيحهم المخلص وإلههم المنتظر. ولا يزال معظم أتباع طائفة الراستفأريين في جامايكا يؤمنون بأن هيلاسيلاسي إله، وأنه لم يمت، وأنه لا يزال حيا وبصحة جيدة.

وهكذا وصل الإيمان بهذا الإمبراطور هيلاسيلاسي حدوداً معروفة من الإيمان بمثله ممن يتقمصون دور المهدي المنتظر أو المسيح المُخلّص.. الخ ويحُلّون بهذا التقمص إشكإلى ات إيمانية عند جماعات بشرية تجمع في فلسفتها بين البأس وإلى أس.

ومن الطبيعي أنه لما حدثت وفاة الإمبراطور هيلاسيلاسي على النحو المهين الذي حدثت به، لجأ الكهنة الذين ينتفعون من تأليهه إلى القول بأن جسده هو الذي هلك، وأنه بقي مسيحاً قادراً على تخليص الأرواح، ولعل هذا هو ما أتاح الفرصة لكثير من التضاربات حول وفاته ومصير جثمانه، فقد بلغت غطرسة الطاغية الديكتاتور منجستو هيلا مريام حد الأمر بأن يدفن جثمان الإمبراطور هيلاسيلاسي على بطنه، أو بطريقة تجعل رأسه ينظر لأسفل إمعاناً في إذلاله،

ومن الجدير بالذكر أن السبب في وفاته (رغم تقدم سنه) لم يعرف على وجه التحديد، وقد قيل إنه تم الأمر بتسميمه بحقنة كفيلة بأن تمنع جثمانه من التعفن، كما قيل بأنه مات خنقاً بوضع وسادة على فمه حتى اختنق، أما الرواية الرسمية التي

أعلنها التلفزيون الرسمي في البداية، فقالت بأنه مات نتيجة لمضاعفات عملية جراحية في البروستاتا بعد فحص روتيني لها.

سهولة الانقلاب عليه

كان من السهل على أي انقلاب عسكري مدعوم بالسلاح والتغطية الدبلوماسية الخارجية، أن يتمكن من إزاحة الإمبراطور هيلاسيلاسي بسهولة، وهذا هو ما حدث في ١٩٧٤، ثم كان من السهل بعد ذلك أن يتم التخلّص من حياته، وهو ما حدث في أغسطس ١٩٧٥، حيث انتهت حياة الإمبراطور هيلاسيلاسي بالموت [سمّاً أو خنقاً أو قتلاً]، بعد عام من إنهاء حكمه وإمبراطوريته.

ومن الجدير بالذكر أن الانقلاب العسكري بدأ بقيادة العسكري الاثيوبي الأريتري المولد أمان عندوم، وعندما طلب الانقلابيون من ولي العهد أن يوافق على تتويجه امبراطورا فإنه رفض، وهكذا أعلن الانقلابيون إلغاء النظام الملكي.

دفن جثمان الإمبراطور هيلاسيلاسي أولا في حمامات القصر الإمبراطوري تحت مكتب الرئيس الطاغية الديكتاتور منجستو هيلا مريام، ولما عثر على رفاته تحت أحد المراحيض في ١٩٩٢ نقل إلى كنيسة تسمى كنيسة بآتا مريم وبقي فيها ثمانية أعوام.

إعادة الاعتبار

ظل اسم الإمبراطور هيلاسيلاسي في غياهب النكران والنسيان منذ وفاته في ١٩٧٥ وحتى نهاية حكم خلفه الديكتاتور منجستو هيلا مريام في ١٩٩١، وفي العام التالى للعام الذي تخلّصت فيه إثيوبيا من الديكتاتور منجستو هيلا مريام بدأت محاولات وسياسات إعادة الاعتبار للإمبراطور هيلاسيلاسي وتدرجت هذه السياسات في إعادة الاعتبار حتى جاء عام ٢٠٠٠، وهو العام الذي فيه دفن جثمانه في الكاتدرائية الكبرى، وفي نوفمبر ٢٠٠٠ أجريت مراسم الصلاة عليه بعد ٢٥ عاماً من قتله، فيما يتوافق أيضا مع الذكرى السبعين لتتويجه كإمبراطور.

وكانت جثته قد حفظت منذ ١٩٩٢ بكنيسة بآتا مريم وحتى أقيمت الجنازة. وقد تمت الصلاة على جثمان الإمبراطور هيلاسيلاسي على نهج سمي بالطراز الإمبراطوري! وتمّ دفنه في كاتدرائية الثالوث المقدس، التي كان قد أسّسها واتخذ اسمه موازيا لاسمه.

وقد بدأ موكب الجنازة فجرا من كنيسة بآتا مريم وسار لمسافة عشرة كيلو مترات إلى كاتدرائية الثالوث المقدس مارا بميدان ميسكال في وسط العاصمة أديس أبابا، وقد ارتدى القساوسة ثيابهم الفخمة، بينما اصطف قدامى المحاربين داخل الكاتدرائية وقد ارتدوا قبعات تزينها شعور الأسود، وحضر مراسم الجنازة عدد من أفراد العائلة المالكة السابقة وبضعة آلاف من الشعب، على الرغم من الأمل الذي كان يحدو بعض أنصاره في أن يكون تتويج الدفن بحضور أضعاف هذا العدد، ومن الجدير بالذكر أن الحكومة الإثيوبية رفضت منح هذه الجنازة أية صفة رسمية.

* * *

١٣
الديكتاتور الحبشي المذعور من الإعدام
منجستو المؤمن بالمانفستو

الديكتاتور منجستو هيلا مريام نموذج بارز ونادر للديكتاتوريين الأفارقة رغم تعددهم، فقد توافقت حياته في صعودها وهبوطها مع المُتغيّرات الدولية والتوافقات الإمبريالية على نحو نمطي لا يُمكن أن تُخطئه العين، حقّق للغرب أقصى ما يُمكن من قمع شعبه وإيقاف تنميته، وضياع بوصلته، وتأسيس عداواته القبلية والعصبية، مع انسحاق تامٍ أمام الشرق وماركسيته المعلنة من ناحية، وأمام الغرب وإمبرياليته الخفية من ناحية أخرى، وبدون مُقابل حقيقي.

ولد الديكتاتور منجستو هيلا مريام عام ١٩٣٧ ولما بلغ الأربعين استطاع أن يصل إلى رئاسة اثيوبيا بالحديد والنار، بعد أن اشترك في الانقلاب العسكري على الإمبراطور هيلاسيلاسي في ١٩٧٤ ولم يظهر في صدارة المُنقلبين للوهلة الأولى، لكنه كدأب الذين يُخطّطون لخطف منصب الرئاسة، قاد سلسلة من التحالفات والصراعات عبر ثلاث سنوات من ١٩٧٤ وحتى ١٩٧٧ وأنجز فيها ما يُمكن وصفه بأنه عدد من المهام القذرة التي تُعتبرُ في عُرف الانقلابات العسكرية بمثابة إنجازات ذات طبيعة خاصة.

وصل الديكتاتور منجستو هيلا مريام إلى رئاسة الجمهورية في ١٩٧٧، بعد أن أعلن عداء صريحا ومُستفزاً للعروبة والإسلام مُغدّيا بهذا شعوراً شعبوياً لا يمتُّ للسياسة ولا للمصلحة بأيّة صلة لكنه كان يستغل الأدبيات والفولكلوريات الشعبوية التي تتميّز بتكامل الهجوم النظري على الإمبريالية وعملاء الإمبريالية.

الدعم الشيوعي من اللحم الحي

وفي مقابل هذا حصل الديكتاتور منجستو هيلا مريام على ما كانت النُظُم الشيوعية في موسكو وحلف وارسو وكوبا تُقدمه لأمثاله خصما من أقوات شعوبها، وهي مساعدة كانت تكفي لمنع الغرق لكنها لم تكن تضمن استمرار الطفو، ولجأ الديكتاتور منجستو هيلا مريام إلى كلّ التحالفات السرية التي تُمهد له أيَّ عون أو اعتراف غربي أو تمنع عنه العقوبات والتشهير، وهكذا مكن لكثير من السياسات الأمريكية والصهيونية على أرض أثيوبيا من دون أن ينتبه العرب والمسلمون والأفارقة لخطورة هذا الذي يندفع إليه ديكتاتور أحمق لم يكن يهمُّه إلا البقاء في

كرسي السلطة على حساب أرواح شعبه. وليس من قبيل المبالغة القول بأن هذا الديكتاتور قتل من شعبه عددا يفوق المليون أو المليون ونصف!

ومن العجيب في تاريخ هذا الديكتاتور أنه على حين كانت مصر والسعودية في خلافهما المعروف عقب توقيع كامب ديفيد ثم معاهدة السلام، فإنه في إحدى خُطبه في ١٩٧٩ قام بحركة مسرحية حطّم فيها زجاجات مملوءة بالدم على اسم مصر والسعودية.

لجأ الديكتاتور منجستو هيلا مريام أيضا إلى التلاعبات اللفظية في استخدام أسماء مُتعددة للنظام الشمولي، ووصل به الأمر في ١٩٨٧، أي بعد عشر سنوات من الحكم إلى أن غيّر اسم الدولة نفسها، وهو سلوك عُتاة الديكتاتوريين الذين يعتبرون أنفُسهم أكبر من الكيان الذي يحكمونه، وهكذا أصبح رئيساً لجمهورية إثيوبيا الشعبية الديموقراطية من ١٩٨٧ وحتى ١٩٩١، بعدما كان رئيساً لإثيوبيا التي لم تكن تضع في اسمها كلمة شعبية ولا كلمة ديموقراطية من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨٧.

سقوطه بسقوط حائط برلين

كان من الطبيعي أن يسقط الديكتاتور منجستو هيلا مريام مع سقوط حائط برلين ثم مع تفكُّك الاتحاد السوفييتي، وبالطبع فإن خاصة القصور الذاتي مكّنته من البقاء لبعض الوقت وليس السقوط في نفس اليوم الذي سقط فيه الاتحاد السوفييتي أو حائط برلين من قبل، وفي هذه الفترة التي منحها له الزمن بفعل القصور الذاتي، ظهر ذكاؤه الماركسي العملي، إذ تمكّن من الهرب إلى زيمبابوي متفاديا ما كان حتمياً من تمكُّن التمرُّد منه ومن رأسه.

جرت محاكمة الديكتاتور منجستو هيلا مريام في إثيوبيا، وثبت عليه اشتراكه في القتل الجماعي، وأُدين بحكم نهائي في ديسمبر ٢٠٠٦، لكن الحكومة الزيمبابوية قالت إنه يتمتّعُ بحق اللجوء السياسي، وإنها تُقدّر له دوره في دعم كفاح زيمبابوي من أجل الاستقلال، وهو دور شمل التدريب والسلاح، والمساعدة في تأسيس القوات الجوية الزيمبابوية.

استأنف الديكتاتور منجستو هيلا مريام الحكم الصادر في حقه أمام القضاء، لكن المحكمة العليا في إثيوبيا حكمت عليه في ٢٠٠٨ بالإعدام، وذلك بدلاً من الحكم الذي كان قد حصل عليه من قبل بالسجن المؤبد، أي أن الاستئناف جاء في غير صالحه (وذلك على عكس ما يقضي به النظام القضائي المصري).

الذعر من الإعدام

يعيش الديكتاتور منجستو هيلا مريام الآن مذعوراً من أن تتغيّر الظروف فتُسلّمه حكومة الدولة التي لجأ إليها، فيلقى مصيره بالإعدام.

تخطّى الديكتاتور منجستو هيلا مريام الثمانين من عمره، بسجلٍ لا يتضمّنُ كثيراً من الفخر ولا الإنجاز، لكنه يحفل بالإرهاب الشيوعي المُفرط الذي لم يقف عند حد، ويحفل بإساءته التعامل مع تاريخ شعبه ووطنه، وعلاقاته وانتماءاته، وقد تمكن الثوار الأرتيريون من هزيمته أكثر من مرة، حتى استطاعوا تحقيق الاستقلال لوطنهم الذي استعمره سلفه الإمبراطور هيلاسيلاسي بالختل والخديعة والغدر.

البؤرة التي فشلت

كان الديكتاتور منجستو هيلا مريام حريّا بأن يكون زعيما لبؤرة شيوعية ماركسية في غرب البحر الأحمر تتضافر مع الانقلابات العسكرية الماركسية أو الشيوعية في اليمن الجنوبي في شرق البحر الأحمر، وأن تزدهر هاتان البؤرتان مع مرور الزمن، لولا سقوط حائط برلين والاتحاد السوفييتي.

كان وجود الديكتاتور منجستو هيلا مريام في السلطة كاشفاً لمدى القصور في السياسة الخارجية لمصر والدول العربية، وهو قصور لا يُمكن ترتيب أيّ دفاع عنه ولا قبول أيّ اعتذار له، لكن طبيعة النظام العسكري في مصر لم تكن بقادرة على أن تتجاوز الصورة المخابراتية في علاقتها مع إثيوبيا، رغم خطورة هذه العلاقة على الأمن القومي، وهي حقيقة فطرية وفسيولوجية أدركها المصريون منذ عصور قدماء المصريين ولم تفرّط فيها مصر إلا في عهد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

هجرة الفلاشا إلى إسرائيل

أما هجرة الفلاشا إلى إسرائيل، فكانت بكلّ ما تكشف عنها وما لم يتكشّف عنها حتى الآن صورة بانورامية مُتعدّدة الوجوه لسوء سياسة منجستو هيلا مريام الديكتاتور الماركسي، وإن كان الأهم من هذا أنها كانت تعبيرا عن تنامي الفشل السياسي العربي في كلّ القضايا المصيرية، وذلك بما كشفت عنه من سيطرة قوى غير مسئولة (كتجار السلاح وسماسرته) على القرار العربي والإفريقي في قضايا مصيرية في وجود حكم انقلابي عسكري.

* * *

١٤

نيريري

الذي ابتلع دولة عربية مسلمة لكنه ازداد فقرا

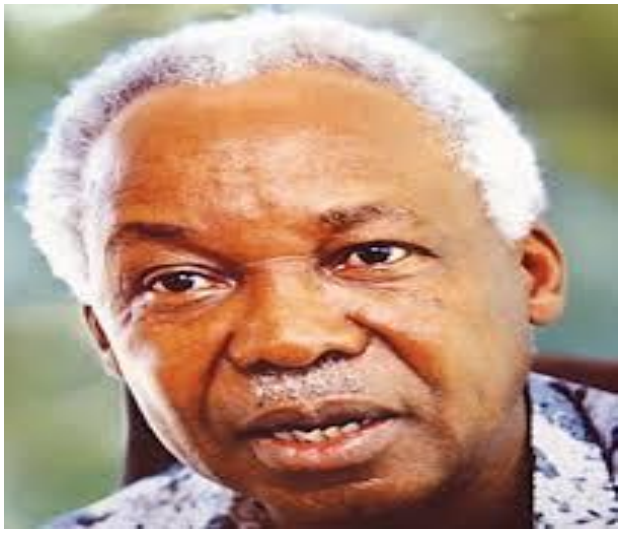

فيما بين الرؤساء الأفارقة الذين تولوا الرئاسة بعد الحرب العالمية الثانية والإنهاء الشكلي للوجود الاستعماري في إفريقيا يأتي الرئيس جوليوس نيريري (١٩٢٢ - ١٩٩٩) ليُمثل أبرز نموذج للطاغية السفّاح الذي مارس كلّ صنوف الطغيان والوحشية ضد المسلمين من أجل إرضاء نزعته المتعصّبة دون أن يكون له هدف آخر أو أن يحقق هدفاً آخر في ميادين التنمية أو التربية فكأنه صعد للرئاسة ليذبح المسلمين وليقضي على الوجود الإسلامي فحسب. ومن العجيب أنه نال الرئاسة من دون كفاح مسلح أو حرب تحرير وكأنه قدر له أن يدخر قوته للاعتداء على جارته العربية المسلمة والاستيلاء عليها وعلى خيراتها.

نموذج الطاغية السفّاح

بذل الرئيس جوليوس نيريري جهوداً فائقة في هذا الطريق وأباد من المسلمين أعداداً كبيرة من دون أن يتحقّق له أيّ مجد، فقد كان يتمتع بالغباء العقلي والغباء القلبي معاً، ولم يستطع أن يُقدم لمواطنيه أيّ أمل في أيّ مستقبل مكتفياً بما وجده من التقبل الناصري لسلوكه، والتغاضي الغربي عن جرائمه، والتشجيع المتعصب لهذه الجرائم، وسعادته حين شعر بأنه انتصر على مواطنين عُزّل وأنه حقّق ما لم يُحققه غيره من إنهاء سلطة الوجود العربي في إفريقيا الذي كان يتمثل في زنجبار التي ضمّها نيريري لتنجانيقا على مرحلتين متعاقبتين كانت الأولى تدليسا بمسمى انقلاب، والثانية عنوة بمسمى وحدة، في إطار ما عرفه العالم منذ ذلك الحين باسم تنزانيا.

ابتلاع زنجبار

كانت زنجبار جزءا لا يتجزأ من سلطنة عمان منذ القرن السابع عشر الميلادي وكانت منارة وجود عربي وإسلامي في إفريقيا وامتد تأثيرها ولا يزال مُمتداً في قلب إفريقيا والكونغو ومنطقة البحيرات الاستوائية. لكن زنجبار التي استقلت في ١٩٦٣ لم تتمتع باستقلالها الذي حصلت عليه إلا لفترة قصيرة جداً حيث استولى عليها نيريري من خلال الخطوتين اللتين أشرنا إليهما بدءا بانقلاب عسكري دموي موالٍ له على نمط ما كانت سياسة الاستحواذ على الدول المجاورة قد رُسمت في معامل المخابرات الامريكية. وهو نموذج لم ينجح منذ تمت هندسته على الورق إلا في

زنجبار حيث قام الانقلاب العسكري ليُمهد لانضمام زنجبار تحت جناح تنجانيقا في دولة واحدة يرأسها نيريري.

أكبر مذبحة بشرية عرفها التاريخ

وقد واكب هذا الابتلاع أكبر مذبحة بشرية عرفها التاريخ حتى ذلك الحين، حيث أبيد ما يقرب من مائة ألف مسلم في خلال أقصر فترة ممكنة، وسرعان ما اذاب الانقلاب العسكري الزنجباري (الذي كان وراءه الرئيس جوليوس نيريري) بلاد زنجبار نفسها في دولة تنجانيقا، على طريقة أقرب ما تكون إلى ما نعرفه في الاقتصاد المعاصر باسم "الاستحواذ" مع إعطاء مسحة إرضاء شكلية للمسلمين بتغيير الاسم إلى تنزانيا.

وقد بلغ الخبث بنيريري أنه لما أعلنت الوحدة بين تنجانيقا وزنجبار في ١٩٦٤ سميت الدولة أولاً باسم جمهورية تنجانيقا وزنجبار الاتحادية ثم سرعان ما تم تغيير الاسم في وقت لاحق من العام نفسه إلى"الجمهورية التنزانية المتحدة" في تقليد ممسوخ لتجربة الرئيس جمال عبد الناصر في الجمهورية العربية المتحدة (مع أن الانفصال السوري كان قد حدث لكن الرئيس عبد الناصر ظل كما نعرف متمسكا بالاسم حتى مماته) وكان يهدف من هذا بالطبع لإخفاء كلمة زنجبار من اسم الدولة المتحدة بكل ما يوحي به الإخفاء لكن كلمة زنجبار لم تختف لحسن الحظ وظلت موجودة بكل ما تمثله من ماضيها العريق.

استهدف إنهاء الوجود العربي

ومن المؤسف أن هذا الانقلاب العسكري الذي لم يكن يهدف إلا إلى إنهاء الوجود العربي، غلّف نفسه بالغلاف الشيوعي التقدمي في حقبة انتشار الشيوعية في بلدان العالم الثالث، وبهذا الغلاف تطوع زعيم علربي كبير هو الرئيس جمال عبد الناصر بتأييده ليُسجّل بهذا التأييد المعنوي والمادي نقطة من أكثر النقاط اسوِداداً في تاريخه الذي لم يخْلُ من وقائع مُشابهة وقف فيها ضد الإسلام ومع كلّ من هم ضد الإسلام.

لكن موقف الرئيس جمال عبد الناصر في زنجبار كان أكثر سواداً من كلّ مواقفه الأخرى في عداء المسلمين، لأنه كان يتعارض أيضا مع ما كان ينادي به ويستظل به من دعوته للقومية العربية، وها هو يقتل القومية العربية قتلا غير رحيم بموقفه المتخاذل والمتواطئ في زنجبار التي كانت تمثل له هو نفسه عُمقاً استراتيجياً ضحى به بسهولة من أجل الرضا الغربي في الوقت الذي كانت الجماهير حتى في أمريكا اللاتينية ترفع صورته وتماثيله باعتباره نموذجاً للتمرّد على الهيمنة الأمريكية والغربية.

تشويه صورة الرئيس عبد الناصر

وهكذا خان الرئيس جمال عبد الناصر بهذا الموقف نفسه ومبادئه ودعوته بل وخان مجده الذي كان حتى ذلك الحين لا يزال يتراكم مع الزمن بسهولة رغم كثرة العداوات، وإذا بالرئيس عبد الناصر نفسه يبدأ من دون انتباه في هدم هذا المجد وينتقص منه بمثل هذا الموقف الذي لا يصدُر عن أيّ سياسي تسنده دراسات استراتيجية عاقلة او متعقّلة، ومنذ ذلك الحين بدأت السياسة الغربية تتعامل مع المد الناصري على أنه قد سقط بدون صوت.

وإذا قيل إن مدرسة الدبلوماسية المصرية (والمخابرات المصرية) كانت ذات شأن كبير في إفريقيا فإن موقف الرئيس جمال عبد الناصر من زنجبار كان كفيلاً ببداية النجاح في القضاء على أي شأن أو أيّ فخر للدبلوماسية المصرية في إفريقيا وبخاصة إذا علمنا أن مصر نفسها كانت قد سمت سفيراً مصريا في زنجبار، وكان من المفترض أنه في طريقه لتولي منصبه.

التمسح بالقومية الإفريقية

ومن الغريب أنه لما بدأ الرئيس نيريري يواجه الانتقاد والهجوم على مشاركته في مذبحة الإبادة الجماعية التي ارتكبها حلفاؤه في حق المسلمين الزنجباريين فإنه وجد العون من قوى لم يكن العرب المسلمون ينتبهون بالقدر الكافي إلى عمق عدواتها للإسلام فقد وجد العون من المنظرين الأفارقة المزورين الذين صوّروا الأمر على أنه يتعلق بالقومية الإفريقية وأن إفريقيا للإفريقيين ومن ثم فلا محل للعرب فيها، باعتبارهم غزاة.

ومع هذا التدليس المعروف عند بعض اليساريين فقد ظلت مذبحة زنجبار أصعب تحد ينتقص من فكرة بناء الدولة الوطنية في أفريقيا على حساب المواطنة العربية في القارة السوداء، واعتبارهم مستوطنين.

ومع أن مثل هذا القول كان في غاية الإحراج لأكبر أنصار الرئيس نيؤيؤي وهو الرئيس جمال عبد الناصر المنادي بالقومية العربية فإن مما يؤسف له أن تحالفات عبد الناصر قصيرة النظر والحافلة بالأحقاد غير المبررة كانت أهم عنده بكثير من استنقاذ أرواح نساء وأطفال شعب عربي من الإبادة، بل إن عبد الناصر رحب بهذه المذبحة لسبب شاذ وهو أنها كانت تضمن له سقوط دولة سلطان عربي، في ظل سعيه المريض إلى التخلص من سلاطين عرب رجعيين آخرين، وهكذا تحققت المفارقة المأساوية بأن يهلك شعب عربي بتأييد من صاحب الدعوة إلى القومية العربية. وأن يصور الأمر زورا على أن عبد الناصر كان داعماً لثورات التحرر الوطني في أفريقيا.

وهكذا جاء اعتراف عبد الناصر السريع بالانقلاب العسكري في زنجبار واعترافه بالنظام الجديد، مفاجئا للعالم الغربي في الوقت الذي كانت بعض الدول الأوروبية والأسيوية ودول قارة أمريكا الجنوبية ترفض شرعية هذه الحكومة القاتلة، وقد بادر الرئيس جمال عبد الناصر بتقديم التهنئة لعبيد كرومي المجرم القاتل علي تسلمه السلطة في زنجبار، وكان هذا متفقا في الظاهر مع ديدنه في الفرحة بأي انقلاب عسكري جديد حتى لو كان الانقلاب على عسكر متحالفين معه وحتى قيل إنه مستعد لأن يؤيد أي انقلاب عسكري في مصر قبل أن يتعامل معه بالإبادة!. واعترف الرئيس جمال عبد الناصر بما قدم للناس على أنه اتحاد زنجبار مع تنجانيقا، وكرس هذا الاعتراف السريع غير المطلوب وغير المشروط في القمة الإفريقية التي عقدت في القاهرة في ١٩٦٤، ورحب عبد الناصر بالرئيس جوليوس نيريري رئيس تنزانيا في القاهرة، بل إنه قام بإغلاق بيت الزنجباريين الذي كان قائما في منشية البكري بالقرب من بيت الرئيس عبد الناصر نفسه.

العملاء السذج

من ناحية ثالثة فقد تولى الفكر الماركسي الزنجباري الذي مثله عبد الرحمن بابو

زعيم حزب الأمة، وعضو مجلس قيادة ثورة ١٩٦٤ ما يتولاه العملاء السذج قصيرو النظر في مثل هذه الكوارث. وروج عبد الرحمن بابو لفكرة أن من قام بالثورة الزنجبارية المزعومة وما ترتب عليها هم البروليتاريا الرثة التي سرعان ما جري استبعادها من دفة الأحداث لتتولي قيادتها قوي ثورية اجتماعية مسؤولة. وظل بابو يقدم هذه التفسيرات المزورة ليغطي بها على مذبحة العرب المسلمين من حيث هي قتل على الهوية وتطهير عرقي وإبادة (جنوسيد) بنسبة ١٠٠ ٪.

الترويج لفكرة كوبا الافريقية

ومن ناحية رابعة فقد تمت مذبحة إبادة العرب المسلمين في حقبة الحرب الباردة التي كان تستهدف كسب رجال السياسة الأفريقيين لسياسات القوتين العظميين، ومع ان المعسكر الاشتراكي استبشر في البداية بثورة زنجبار الموصوفة في أدبيات تلك الفترة بـأنها "كوبا أفريقيا"، فإن الغرب كان يعرف أن هذه الثورة لا تعدو أن تكون حربا على الإسلام وهكذا رحب الغرب سريعا بما انتهى اليه الانقلاب العسكري من التخلص من زنجبار نفسها وكلها بضمها على طريقة الاستحواذ لتنجانيقا المتخلفة عنها.

على صعيد خامس فإن مناخ التعتيم الإعلامي وغياب الرأي والرأي الآخر تكفّل ببقاء الجريمة مستورة إلى حد ما، لكن التاريخ كفيل بفضح من يتسترون على الجرائم.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن الرئيس جوليوس نيريري لم يكتف في عدائه للإسلام بالمذابح والتعسف والإقصاء وتغيير الواجهات والتوجهات بل إنه في ١٩٧٣ قرر نقل العاصمة من دار السلام التي هي درة إفريقيا على المحيط الهندي في منطقتها وهي مدينة عربية إسلامية منذ العصر الأموي (٥ مليون نسمة) إلى عاصمة جديدة هي دودوما (ربع مليون نسمة).

كيف فضح التاريخ جريمته

أسدل المتنفذون في السلطات سترا كثيفة على فضيحة موقفهم مما حدث في زنجبار لكن جاذبية الحدث وقسوته دفعت الكاميرا التي لا تعرف مثل هذه الحسابات إلى

تصوير بعض المشاهد الحية بواسطة التليفزيون الإيطالي في الفيلم الوثائقي «وداعا أفريقيا» عام ١٩٦٦، وعَرَض الفيلم مذبحة زنجبار ضمن فظاعات أفريقية وقعت بعد استقلال بلدان القارة السمراء. وفي ذلك الفيلم يري المشاهد -علي الطبيعة- كيف كان العرب يُساقون للقتل علي الهوية، والمقابر الجماعية التي ضمت رفاتهم، وقد احتج سفراء في أفريقيا في إيطاليا علي الفيلم الذي صدمهم عنفه، حيث كان استقلال القارة لايزال يعيش البهجة.

وينسب إلى دبلوماسيين أميركيين القول المشهور: "لو كنا نتكلم في ١٩٦٤ بلغة اليوم لوصفنا محنة العرب في الجزيرة في تلك السنة بـالجنوساید [أي الإبادة الجماعية] لا مواربة".

وفيما بعد أعوام عندما بدأ الغرب سياسته الرامية إلى التخلص من الجنرال عيدي أمين رئيس أوغندا بعدما أعلن إسلامه، فقد أوتي هذا الرئيس الأوغندي من مكمنه حين طرد الهنود الذي كانوا يسيطرون على اقتصاد أوغندا منذ زمن الاحتلال البريطاني وطالب بأفرقة الوظائف ورفع شعار أن إفريقيا للإفريقيين. وعندئذ روج الغربيون حملة إعلامية لتصوير عيدي أمين رئيس أوغندا متهما بالعنصرية لقيامه بطرد العناصر الآسيوية في أوغندا.

وفي مقابل هذا فقد صوروا الرئيس جوليوس نيريري صاحب الماضي العنصري الفظيع والفادح وكأنه أصبح رجل سلام ومكافحا للعنصرية، وروجوا لهذه الفكرة الزائفة بمشاركة نيريري المظهرية في صياغة بيان لوساكا الداعي إلى تعاون العرقين الأبيض والأسود من أجل مصلحة إفريقيا، وسرعان ما تطور الاختلاف بين هذين الرئيسين إلى قيام الجيش الأوغندي بغزو تنزانيا ١٩٧٨، ورد الرئيس جوليوس نيريري بغزو أوغندا سنة ١٩٧٩ والإطاحة بالرئيس عيدي أمين، بمساعدة الغرب، وبزعم وجود مساعدة من المعارضة الداخلية، وبهذا تمكن نيريري من إعادة زميله ملتون أوبوتي إلى حكم أوغندا.

معركته مع عيدي أمين

وهكذا فان هذا الطاغية الذي هو الرئيس جوليوس نيريري الذي قتل العرب

والمسلمين تحت دعوى أن إفريقيا للإفريقيين هو نفسه الذي صورته الأدبيات الغربية على أنه تصدى لعيدي أمين متبنيا عكس ما كان يدعو إليه، ولم يتصد له بالحملات الدعائية أو المواقف السياسية فحسب وإنما تصدى له بالحرب، بسبب هذا الموقف السياسي الذي يُمكن تصنيفه بلغة الغرب المزدوجة على أنه موقف فكري، لكن هذا الموقف الفكري كان تبريراً غربيا منافقا لأن يقوم نيريري ممثلاً للغرب وبدعمٍ منه بغزو أوغندا وإسقاط حكومة عيدي أمين وتسليم السلطة لعدو عيدي أمين.

ومع أن نيريري بدا وكأنه انتصر وحقق نجاحا آخر، فإن النفقات المالية لإطاحته بالرئيس الأوغندي أسهمت في تدهور نظام نيريري نفسه بأكثر مما كان متدهورا، وقد أدى الرئيس جوليوس نيريري هذا الدور الامبرياإلى الاستعماري بأريحية عالية ومن دون أن ينال عليه أيّ مقابل اكتفاء بتحقيقه لحقده على الإسلام وعنصريته، وكانت النتيجة أن ازدادت بلاده فقراً ومعاناة، وأثبتت سياساته فشلها في وقت لم يكن المعادون للإسلام قد بدأوا يحصلون على الدعم الوفير من الإمارات العربية المتحدة المعادية للإسلام.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن كثيرين من الأوغنديين الذين شهدوا تلك الفترة وعانوا بطش نظام عيدي أمين، لا يطيقون حتى الآن سماع اسم الرئيس جوليوس نيريري، لأنه أتي بملتون للسلطة في أوغندا وكان الرئيس ملتون أكثر قمعا وديكتاتورية من الرئيس عيدي أمين.

وهكذا سقط الرئيس جوليوس نيريري بحكم المنطق والواقع، فأعلن عن تنحيه عن الرئاسة، وأعلن عن تفرغه للحزب، ثم إنه أعلن بعد ذلك في فلسفة فارغة أنه لم يستقل وإنما غيّر موضع قدمه وكان نيريري موهوبا في اللعب بالألفاظ على قدر فشله في التنمية، كما كان موهوبا في التآمر من أجل نفسه على قدر فشله في الحكم الرشيد.

ومع كل هذا التآمر من الرئيس جوليوس نيريري ضد شعبي زنجبار وأوغندا وضد شعب تنجانيقا نفسه فقد روج اليساريون لنيريري علي أنه من رموز الوحدة الافريقية ودعاتها مع نكروما في غانا، وسنجور في السنغال، وكينيث كاوندا في زامبيا، وبالطبع فإنهم صوروه من أبرز نشطاء حركة عدم الانحياز.

نشأة نيريري وتكوينه

على سبيل الإجمال والتلخيص فقد كان الرئيس جوليوس نيريري سياسيا تقليديا بسيطا، ولد عام ١٩٢٢ وأُتيحت له فرصة التعلم في بريطانيا فدرس في إدنبره ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٢ وعاد فأصبح مدرساً في بلاده ولما تأسس الاتحاد الوطني الافريقي في تنجانيقا أصبح هو رئيس هذا الاتحاد الذي سلم له الاحتلال البريطاني السلطة بيسر وسلاسة.

ولد الرئيس جوليوس نيريري في منطقة بوتياما في إقليم بحيرة فكتوريا كان والده أحد رؤساء قبيلة زاناكي المحلية. تلقي تعليمه الأول في إرساليات المدارس الكاثوليكية فبدأ تعليمه الأولي في بلدة «موسوما» ثم انتقل إلى مدرسة «تابورا» الثانوية التابعة للكنيسة الكاثوليكية، مما أدي إلى إعلانه تمذهبه بالمذهب الكاثوليكي في العشرين من عمره.

تابع الرئيس جوليوس نيريري دراسته في كلية «ماكيريري» بأوغندا ليصبح معلماً، وعمل في سلك التدريس في أكثر من مدرسة حتي سنة ١٩٤٩، عندما التحق بجامعة أدنبره البريطانية، علي نفقة الحكومة المحلية وحصل علي درجة الماجستير في التاريخ والاقتصاد السياسي سنة ١٩٥٢،

وعقب عودة الرئيس جوليوس نيريري من بريطانيا عمل بالتدريس في كلية «سان فرانسيس» بمدينة «يوكو» وتتحدث الأدبيات الممجدة له عن أنه تفاني في محو الأمية المنتشرة بين مواطنيه.

كانت والدته موجايا هي الزوجة الثامنة عشرة لأبيه، لكن نيريري لم يتبع تقاليد الأسرة القبلية في الزواج، فاقترن بامرأة واحدة هي السيدة ماريا وتزوج ١٩٥٣.

تفرغه المبكر للعمل السياسي

تفرغ الرئيس جوليوس نيريري للعمل السياسي بهدف تحقيق استقلال بلاده أمام الهيئة الدولية سنتي ١٩٥٥-١٩٥٦، وأصبح علي نحو تلقائي ممثل بلاده الدائم في المحافل الدولية. قررت الإدارة البريطانية تعيينه عضواً في المجلس التشريعي، لكنه استقال منه سنة ١٩٥٧ احتجاجاً علي التباطؤ في إصدار قرار الاستقلال.

يصور أنصار الرئيس جوليوس نيريري المروجون له أن السياسة البريطانية كانت تكرس القبلية وتشجع الزعامات التقليدية في إفريقيا، لكنه أصر علي مقاومة هذا التوجه ودفع الشعب إلى التخلي عن تلك العادات القبلية السلبية، ونجح في توسيع أنشطة حزبه لتشمل المناطق والشرائح الريفية والعمالية، بعدما كانت قاعدة الحزب تعتمد علي أبناء المدن، كما اكتسب ثقة النقابات العمالية التي كان ظهورها قد تبلور منذ عام ١٩٤٧ عقب عودة الجنود من الحرب العالمية الثانية.

وبالتدريج، ومع زيادة عدد الأعضاء الأفارقة في الجمعية التشريعية أخذ نيريري في الدعوة إلى الاعتراف بحق تنجانيقا في الحكم الذاتي، وطالب بريطانيا بالالتزام بميعاد محدد للاستقلال، مما دفع سلطات الاحتلال البريطاني للقبض عليه وسجنه، فزادت شعبيته وصار أيقونة للنضال لدي مواطنيه.

اقترح الرئيس جوليوس نيريري أن تحصل بلاده علي الاستقلال عام ١٩٥٩، فلما رفض طلبه استقال من المجلس التشريعي الذي كان قد انضم إليه عام ١٩٥٧، وبعد مقاومة سلبية للاحتلال - تضمنت الامتناع عن دفع الضرائب، أعيد تعيينه في المجلس التشريعي سنة ١٩٦٠

وحين أجريت الانتخابات حصل حزب نيريري (الاتحاد الوطني) علي أغلبية تشبه الإجماع إذ حصل على ٧٠ مقعداً من أصل ٧١ مقعدا. وأصبح رئيساً للوزراء في ١٩٦٠ تمهيداً ليتسلّم السلطة مع إعلان الاستقلال الذي كان تقرّر أن يكون في ١٩٦١. وفي ١٩٦٢ ترك رئاسة الوزارة ليتولى رئاسة الجمهورية عندما أعلنت الجمهورية.

استيلائه على زنجبار

وشهد عام ١٩٦٤ إعلان الاتحاد بين تنجانيقا وجارتها «زنجبار» التي كانت قد حصلت علي استقلالها عام ١٩٦٣، فتوحد البلدان في دولة واحدة سميت كما أشرنا باسم "الجمهورية التنزانية المتحدة"، واختصارا "تنزانيا" وانتخب الرئيس جوليوس نيريري رئيساً لهذه الدولة الجديدة سنة ١٩٦٥كما أنتخب السياسي الزنجباري الشيوعي عبيد كرومي رئيس زنجبار نائبا للرئيس.

أعيد انتخاب الرئيس جوليوس نيريري رئيسا لتنزانيا في أعوام ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠ وهكذا ظل الرئيس جوليوس نيريري رئيساً لبلاده حتى ١٩٨٥ حين أزاحه الشعب.

ظلّ الرئيس جوليوس نيريري يمارس التسلط والديكتاتورية في رئاسته البطريركية من دون أي نجاح اقتصادي أو تنموي مُكتفيا بعلاقته بزعماء من طراز الرئيس عبد الناصر والاتحاد السوفييتي وعدم الانحياز وما إلى هذا من الكائنات السياسية التي كان أمثاله من زعماء العالم الثالث يدورون ويعاودون الدوران في فلكها.

وطبقا للنظام الدوري في رئاسة منظمة الوحدة الإفريقية فإنه في العام الأخير من رئاسته كان يتولى رئاسة منظمة الوحدة الإفريقية خلفا للرئيس الإثيوبي منغستو مريام، وقد خلفه في رئاسة هذه المنظمة الرئيس السنغالي عبده ضيوف.

انسحابه من السياسة

استقال الرئيس جوليوس نيريري سنة ١٩٨٥ من رئاسة جمهورية تنزانيا، وخلفه الرئيس علي حسن المولود (١٩٢٥) وكان رئيسا لزنجبار ما بين يناير ١٩٨٤ وأكتوبر ١٩٨٥ ونائبا لرئيس تنزانيا، وقد رأس تنزانيا ما بين ١٩٨٥ و١٩٩٥.

وعندما تقاعد نيريري عام ١٩٨٥ فإنه ابتكر كلمة سواحيلية جديدة هي «كونجا توجا» بمعنى «التقاعد عن العمل»، وهكذا برر تركه العمل السياسي الرسمي، لكنه تدارك هذه العبارة بعدما هدأت الثورة ضده فاستبدل بالمصطلح القديم قوله: «أنا لم أتقاعد، بل غيرت موقع قدمي»، وقد ظل يتزعم الحزب السياسي الوحيد أو ما سماه هو بـ الحزب الثوري الذي أسسه سنة ١٩٧٧ بعد دمجه بحزبه القديم وحزب أفرو شيرازي في زنجبار. وظل رئيسا له حتي العام ١٩٩٠، كما ظل صاحب نفوذ كبير في تنزانيا طيلة حياته.

نجاحاته اللغوية

على الرغم من كل ما نأخذه على الرئيس جوليوس نيريري من طغيان وضيق في الأفق وتسلط فإننا بحكم حبنا للغة والتوحيد اللغوي نذكر له نجاحه البارز في توحيد لغة بلاده، والتزام هذه البلاد رغم تعدد قبائلها وبيئاتها باللغة السواحلية، وقد

استطاع بهذا التوحيد اللغوي إذابة الفوارق بين أكثر من مائة قبيلة وإثنية جمعتهم تلك اللغة الواحدة التي كانت منتشرة علي ساحل المحيط الهندي بمساعدة العرب والمسلمين، كما انتشرت في شرق القارة ووسطها. ولولا أنه كان متعصبا دينيا لكان في وسعه أن يلجأ بخطوة جريئة إلى اللغة العربية التي تشترك معها اللغة السواحلية في كثير من مفرداتها ومقوماتها، ويكسب بها بعداً استراتيجيا هائلاً لبلاده التي كانت تعرف العربية وتستعملها في كير من مناطقها، لكنه التعصب الأعمى والانبهار بالسلوك العنصري الذي مثله زعماء ثلاث جبهات قريبة منه رفعت شعار القومية رغم الفارق بين سياساتها وهي: العرب وإسرائيل وهيلاسيلاسي مع اختلاف نزعات هذه الجبهات الثلاث.

وقد بذل الرئيس جوليوس نيريري نفسه جهداً في إحياء هذه اللغة وتغذيتها وهو الذي ترجم إليها عملين من أعمال شكسبير.

حفاظه على النسل والأسرة

يُذكر للرئيس جوليوس نيريري على صعيد ثان أنه في ظل تنامي دعوات تنظيم الأسرة التي كانت تمولها الولايات المتحدة الأمريكية وتلح على الدول الفقيرة في الأخذ بها فإنه التزم بعقيدته الكاثوليكية وكان له سبعة من الأولاد خمسة أبناء وبنتين، ويُذكر له انه لم يُرحب بمثل هذا النشاط الهدام على نحو ما انخدع زعيم اندونيسيا الجنرال المسلم محمد سوهارتو أو زعماء الصين الشيوعيين، وهنا لا بد لنا أن نُثني على جانب من الجوانب الإيجابية للتعصب الديني بكل مرارته وهو الجانب الذي يكفل حماية الملتزمين من كثير من النزعات الإمبريالية للغرب..

يجدر بالذكر أن تنزانيا من حيث الموقع دولة محورية وفاصلة ورغم استمتاعها بالوقوع على المحيط الهندي بشاطئ كبير فإنها ترتبط أيضا بحدود سياسية مع ثماني دول إفريقية بينما تطل من الشرق على المحيط الهندي أما في الشمال فإنها تشترك في الحدود مع كينيا وأوغندا وفي الجنوب مع موزمبيق وزامبيا وملاوي وفي الغرب مع الكونجو الديموقراطية وبوروندي ورواندا.

توجهاته الاقتصادية الكارثية

كان الرئيس جوليوس نيريري طاغية صريحا بلا مواربة، وكان يعلن أنه يرفض ديمقراطية الانتخابات في صراحة بالغة، متعللا بأن دول إفريقيا الناشئة لا يمكنها تحمل تهديد وجودها بالنزاعات الانتخابية، ولذلك حكم عن طريق الحزب الواحد، وكان قاسياً في إدارته علي كل من ينادي بغير هذه الأفكار حتي علي أقرب أصدقائه.

أما في الاقتصاد فقد كرر الرئيس جوليوس نيريري مراهقات الرئيس عبد الناصر الفكرية من دون أي خجل، فدعا إلى اشتراكية من نوع جديد ترتكز علي التكافل العائلي، وعرضها علي مواطنيه والعالم سنة ١٩٦٧في وثيقة إعلان أروشا وهي وثيقة شبيهة بالمنفستو والميثاق (و الكتاب الأخضر فيما بعد).

لم يصبح الرئيس جوليوس نيريري شيوعيا، وان غازل المعسكر الشرقي واقترب من المعسكر الرأسمالي، كذلك فإنه لم يتحول نحو الرأسمالية، وقد أقنع الرئيس جوليوس نيريري نفسه بالوهم بأنه ابتدع «الاشتراكية الإفريقية» أو «الإفريقانية» والاعتماد علي الذات الإفريقية كنظام سياسي واقتصادي، نجح الرئيس جوليوس نيريري في تدمير البنية الاقتصادية لتنزانيا التي صارت إحدي أفقر دول العالم في عهده، وانتهي نظام «الاشتراكية الإفريقية» في تنزانيا عام ١٩٨٥ بتنحيه طوعا عن الحكم، واكتفي بلقب «المعلم» و«أبو الأمة» التنزانية رغم سياساته الفاشلة الفقيرة علي حد وصف خصومه السياسيين.

مؤلفاته

نشر الرئيس جوليوس نيريري في حياته عدداً من الكتب أشهرها «الحرية والوحدة» سنة ١٩٦٧ و«الحرية والاشتراكية» سنة ١٩٦٨ و«الحرية والتطور» سنة ١٩٧٣، كما ترجم رائعتي شكسبير «تاجر البندقية» و«جوليوس قيصر» إلى اللغة السواحلية.

وفاته

توفي الرئيس جوليوس نيريري في أكتوبر ١٩٩٩ عن عمر يناهز ٧٧ عاما بمستشفى «سان توماس» في لندن، حيث كان يعالج من مرض سرطان الدم «لوكيميا»، وكان الأطباء شخصوا مرضه منذ مطلع عام ١٩٩٨ وقد توفي في العناية الحرجة عقب تدهور حاله الصحية، بعد أن تعرض أيضا لسكتة دماغية.

الباب الخامس: غرب إفريقيا ووسطها

١٥
الرئيس أحمد سيكوتوري أكثر الرؤساء الأفارقة اتزانا

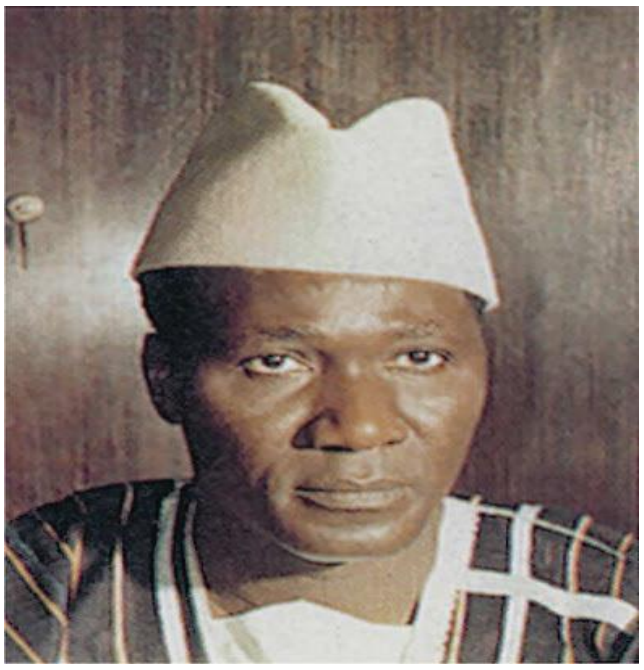

من بين الرؤساء الأفارقة في القرن العشرين يأتي الرئيس الغيني أحمد سيكوتوري ١٩٢٢- ١٩٨٤ ليُمثل نموذج رجل الدولة الحصيف، وأكثر الرؤساء اتزانا وتعقّلا وإنجازاً، وقد نجح في أن يخطو بقضية استقلال بلاده قبل الاستقلال وبعد الاستقلال إلى مسار آمن يضمن لها معنى الاستقلال الحقيقي بعيداً عن الانحيازات المظهرية إلى الفرنكوفونية أو المزاعم الشوفونية بالتأسيس على ماض أصيل موجود بالفعل، لكنه ليس مُتصلا بالحاضر. وهكذا حافظ سيكوتوري على كل مكاسب الانتماء والولاء، كما حافظ أيضا على مكاسب "البراء "على نحو ما يوحي به الاستعمال السياسي للتعبير الفقهي المُتداول في غير موضعه.

الحرص على معنى الاستقلال

ويكفي على سبيل المثال أن نُشير إلى أنه ابتعد عن أن يكون جزءاً من مؤسّسات الجمهورية الفرنسية بعد الاستقلال، على الرغم من أنه كان هو نفسه عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية عن غينيا ما بين يناير ١٩٥٦ وديسمبر ١٩٥٨، لكنه لم يُغازل المؤسسات الفرنسية على نحو ما فعل سنجور وغيره، ولم يربط اقتصاد بلاده ولا مواردها بفرنسا على نحو ما فعل عمر بونجو وغيره، وإنما كان من المُنتبهين منذ مرحلة مُبكرة إلى ضرورة التعبير الحر عن الاستقلال الحقيقي من دون أن يكلّف بلاده ومواطنيه ثمناً فادحاً لهذا التعبير، وبهذه الفلسفة المتعقلة، فإنه استطاع المُضي في الصمود والتقدم على حين لم يستطع كثير من معاصريه الأفارقة المضي، ولا التقدم، كما هو الحال مع الزعيم الكونغولي الشهير لومومبا.

وعلى حين لم يستطع آخرون الصمود كما كان حال نكروما وعلى حين لم يستطع الآخرون التقدم مع التاريخ للإمام ومع كل هذا فإن الرئيس الغيني أحمد سيكوتوري لم يسْتعْد الفرنسيين على نحو ما كان الرئيس هواري بومدين حريصاً على الاستعداء، كما أنه لم يستسلم لهم تماماً على نحو ما كان الرئيس بورقيبة يفعل، وبالطبع فإنه لم يُناورهم بذكاء الملوك وخطواتهم متعدّدة الاتجاهات على نحو ما كان الملك الحسن الثاني يفعل.

علاقته الأبية بالاتحاد السوفييتي

يُذكر للرئيس أحمد سيكوتوري أيضا أنه على الرغم من العلاقات الجيدة التي ربطته بالاتحاد السوفييتي، فإنه كان منتبهاً إلى أن يقف بهذه العلاقات عند حد معين، وقد وصل الأمر في هذا الصدد إلى أنه كان حريصاً على أن يُبعد السفير السوفييتي ١٩٦١ عن كوناكري في عهد غطرسة الزعيم السوفييتي خروتشوف، ومع هذا فقد حاز سيكوتوري جائزة لينين للسلام، وهي أعلى التقديرات السوفييتية.

ومع هذا الاتزان كله، فقد كانت علاقات الرئيس سيكوتوري العربية والإسلامية أكثر من ممتازة، وكانت صداقته لمصر ورؤسائها الثلاثة الذين عاصرهم مضرب المثل في الإخلاص والتعقل، ويكفي أنه هو الوحيد من بين أقرانه الذي جعل اسم الجامعة الوطنية على اسم الرئيس عبد الناصر، كما يكفي أن نُشير إلى أن جامعة الأزهر في ١٩٨٢ كرّمته بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية في احتفال مهيب في عهد رئاسة الرئيس مبارك ومشيخة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق للأزهر ورئاسة الدكتور محمد الطيب النجار لجامعة الأزهر.

الوساطة بين العراق وإيران

كذلك يكفي أن نشير إلى أن هذا الرئيس كان هو مَنْ وقع عليه اختيار الزعماء العرب والمسلمين ليتولى الوساطة بين العراق وإيران في حربهما (٨٠ ـ ١٩٨٨) ومع أن بعض الأطراف التي وسّطته لم تكن تريد لهذه الوساطة أن تنجح، فقد أدى الرئيس سيكوتوري مهمته بإخلاص لم ينتبه معه إلى ما لم يكن العقل يتخيّلُه من الطبيعة المستترة لذلك النزاع والمستفيدين منه.

في كل هذه التوجهات كان الرئيس أحمد سيكوتوري من الذين فهموا الأصالة على نحو ذكي وبفهم سيكولوجي واجتماعي مكتمل ساعده عليه ارتباطه بدينه العظيم، ولم يكن مثل مُعاصره الرئيس موبوتو الذي اكتفى من فهم الصياغة بالمفهوم اللغوي أو الفلسفي، وهكذا استطاع الرئيس أحمد سيكوتوري أن يمنح مواطنيه الأمل في مستقبل واعد بعيداً عن الاعتماد على الآخرين.

إنهاء الانخداع بالانتماء الفرنسي

نجح الرئيس أحمد سيكوتوري أيضا في إنهاء الانخداع بالانتماء الفرنسي، على الرغم من أنه ظل يتحدث الفرنسية التي تعلمها في مرحلة مُبكرة بعد أن كان قد تلقى تعليمه الديني التقليدي فيما يُناظر الكتاتيب والخلوات التي تستعين على التعليم بالقرآن الكريم مؤصّلة لتجربة تعليمية ناجحة دامت لأكثر من ١٣ قرناً من الزمن، وأمّنت لفقراء المسلمين القدر الكافي من المعرفة الكفيلة بالولوج الناجح إلى النظم التعليمية الأخرى.

وهكذا أثبت الرئيس أحمد سيكوتوري نجاحه في التعليم الفرنسي الذي التحق به في وطنه غينيا واستطاع ان يُبلور نجاحاً دراسياً ونجاحاً في تكوين الشخصية القادرة على الأداء وعلى الحكم معاً، وكان أبرز زعيم عمإلى يصل إلى رئاسة الجمهورية في وطنه، وكان قد وصل إلى رئاسة العمل النقابي الغيني في ١٩٤٥ وأصبح سكرتيراً عاما لاتحاد نقابات عمال غينيا، ثم انضم للمؤتمر التأسيسي لحزب التجمع الافريقي الديموقراطي.

الحزب الوطني الديموقراطي

خطا الرئيس أحمد سيكوتوري خطوة مهمة في ١٩٤٧ حين أسّس حزباً قوياً يستهدف تحقيق الاستقلال الوطني، وقد اختار لحزبه هذا اسم الحزب الوطني الديموقراطي، قبل أن تعرف مصر هذا الاسم الدال بأكثر من ثلاثين عاما، ونجح من خلال النضال السلمي الدءوب (بالإضراب ٧٣ يوماً) في أن يُجبر الفرنسيين على تطبيق قانون العمل في غينيا..

وكان طبيعيا أن ينجح الرئيس أحمد سيكوتوري في تحقيق استقلال غينيا في الوقت الذي كانت الدول الاستعمارية قد بدأت تتخلى عن فكرة الاستعمار القديم لتدخل حقبة الاستعمار الجديد، وهكذا فإنه في بداية عام ١٩٥٨ لم يستجب لدعوة الرئيس الفرنسي ديجول إلى الاندماج في فرنسا وفضّل أن يمضي إلى تحقيق الاستقلال الذي أُعلن في ٢ أكتوبر ١٩٥٨، وذلك على الرغم من احتفاظه بالجنسية الفرنسية، وعلى الرغم من أنه كان عضواً في البرلمان الفرنسي كما أشرنا، ومن الجدير بالذكر أنه توفي في أثناء

علاجه بالولايات المتحدة الأمريكية، على غير ما هو معتاد من علاج أمثاله في فرنسا.

آثاره

وكان للرئيس أحمد سيكوتوري تراث ثري من الكتب والمحاضرات التي ألقاها وقد تُرجم بعض هذا التراث للغة العربية.

الفرق بين الدولتين اللتين تحملان اسم غينيا

من الطريف أن غينيا كانت تُسمى بغينيا كوناكري أو الفرنسية تميّزاً لها عن غينيا بيساو التي كان البرتغاليون قد استعمروها ولا تزال اللغة البرتغالية سائدة فيها، وبينما يبلغ عدد سكان غينيا بيساو مليونا ونصف فإن سكان غينيا يبلغون ثمانية أضعافهم ١٣ مليونا، وتبدو النسبة نفسها في المساحة (غينيا ٢٤٥ ألف كلم مربع، وغينيا بيساو ٣٩ ألف كم مربع) لكن متوسط دخل الفرد حسب إحصاءات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية فيبلغ ٤٥٠ دولارا في غينيا، بينما هو ثلاثة اضعاف هذا في غينيا بيساو ١٣٥٠ دولاراً، وبينما تحتفظ غينيا بالفرنك الغيني فإن غينيا بيساو تشارك في عملة الفرنك الخاص بغرب إفريقيا.

* * *

١٦

لومومبا

الزعيم الذي آمن بصوت مصر العالى ففقدت الكونجو مُستقبلها

أبدأ الحديث عن الكونغو فأُجاهر بالقول إنني لست من المُعترضين على ما يُسمّى بتدخُّل عبد الناصر في الكونغو، بل بالعكس فأنا من اللائمين على أن هذا التدخُّل لم يكن بالقوة المطلوبة، وإنما كان صوريا ومظهريا، ولم يتعد الحدود الدنيا الرمزية وتوقف عندها.

علاقة الكونغو بالأمن المصري

ومن المؤسف أننا لا نزال مُقصّرين في فهم هذه الجزئية المهمة من جزئيات تاريخ الحقبة الناصرية، بالرغم من اتصالها بالأمن القومي المصري في أخطر مُنعطفاته. وباختصار شديد، فإن علاقة مصر بالكونغو أكبر بكثير من تصوُّرات المصريين عن هذه العلاقة. ونحن نعرف من التاريخ الحديث أن حدود مصر الطبيعية في عهد الخديو إسماعيل شملت الكونغو.

ثم نعرف من التاريخ المعاصر أن الرئيس عبد الناصر لم يتسلم رئاسة الجمهورية في يونيو ١٩٥٦ إلا بعد أن كان حقّق أمل الغرب القديم في فصل مصر عن السودان وذلك بما عُرف على إنه إعلان استقلال السودان في يناير ١٩٥٦، حين كان الرئيس عبد الناصر لا يزال رئيساً للوزراء، يتأهّبُ لأن يوافق عليه الغرب رئيساً لجمهورية مصر بعد أن تنفصل السودان وبعد أن تنقطع علاقة الجوار المصرية مع سبع دول إفريقية كانت ترتبط بحدود مُتصلة بمصر حتى نهاية عهد الرئيس محمد نجيب وحتى العهد الذي كان عبد الناصر رئيساً للوزراء بدون رئيس للجمهورية (أي منذ نوفمبر ١٩٥٤).

وكانت هذه الدول هي إثيوبيا (التي كانت لا تزال ترتبط بمصر ارتباطاً عضوياً من خلال روابط كثيرة من بينها الكنيسة المصرية على سبيل المثال، قبل أن تُسارع بالاستقلال عن هذه الكنيسة لتقطع أي علاقة مع الحكم المصري)، واريتريا وتشاد وكينيا وأوغندا والكونغو وأفريقيا الوسطى.

الكونغو كانت جارا مباشرا لمصر

فقدت مصر علاقة الجوار المباشر بالكونجو في يناير ١٩٥٦ مع ما سُمّي باستقلال السودان، ولهذا فإن الوجود المصري في الكونغو في مطلع الستينات لم يكن اختراعاً

على نحو ما يُصور أعداء الناصرية ومن العجيب أن يُشاركهم الناصريون في تصورهم هذا بقصر نظرٍ شديد، وإنما كان هذا الوجود المصري في الكونغو اتصالا بماض قريب، لم ينقطع بعد، لأن أربع سنوات من فقدان الجوار والحدود المشتركة (١٩٥٦-١٩٦٠) ليست بكافية للقضاء على الماضي.

أما الزعيم باتريس لومومبا فقد ولد عام ١٩٢٥ في قبيلة المونغو، وكان من أبناء النخبة في بلاده وفي قبيلته، وهكذا فإنه حظي بالتعليم، وإن كان تعليمه قد تمَّ في المدارس التبشيرية، لكن توظّفه المُبكّر في البريد أعطاه حصانة ضد الانخراط في الهوية الأوربية، وحفظ عليه إيمانه بوطنه وهوّيته، وبخاصة عندما كان يرى فظائع الاستعمار البلجيكي في معاملة المواطنين السود، وهي فظائع مشهورة، جعلت من صورة البلجيكيين في أدبيات تلك المرحلة صورة مُشابهة لصورة البرتغاليين في فظائعهم التاريخية.

الزعيم باتريس لومومبا فيما قبل الزعامة

لم تكن حياة الزعيم باتريس لومومبا الوظيفية والعامة خالية من المتاعب والمنغصات، حتى إنه تعرّض للاتهام بالسرقة، وحُكم عليه بالسجن، وقضى فترة العقوبة ثم خرج إلى الحياة العامة.

وكان الزعيم باتريس لومومبا من الذين لبوا دعوة الزعيم الغاني نكروما إلى ما سُمّيَ بمؤتمر أكرا في ١٩٥٨ وهو المؤتمر الذي مهّد لمنظمة الوحدة الإفريقية التي رأسها نكروما نفسه، وإن كان الجزء الأكبر من هذا المجد قد نُسب إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر لسبب وحيد هو سطوة الإعلام الناصري والقوة الناعمة لمصر، وهي قوة وجدت توظيفاً جيّداً من الرئيس عبد الناصر ومن إعلامه، لكن هذا التوظيف مع نجاحه الإعلامي والدعائي والمعنوي آذى الأفريقيين من حيث لم يحتسبوا وإن كانت قواعد علم الاجتماع السياسي قد بصُرت بالنتائج بدون مواربة.

فقد أصبح الزعماء الأفريقيون الجُدُدْ مُطالبون بنبرة عالية من تحدي الغرب، حتى لو لم يملكوا القوة اللازمة لحماية هذه النبرة واستمرارها، وهكذا فإنه في الوقت الذي كان الزعيم باتريس لومومبا قد وصل إلى ذروة البلاغة والحماسة في خُطبه ومقالاته،

فإنه لم يكن قد وصل إلى ما يُوازي هذه الذروة في تكوين وتنظيم المؤسسات العسكرية الشعبية (كتنظيمات الحرس الثوري الكفيلة بحماية الاستقلال بل وحمايته هو نفسه.

علاقة الاستعمار البلجيكي بالمخابرات الأمريكية

وعلى الرغم من أن المكانة الدولية للاستعمار البلجيكي لم تكن في أوج قوّتها وتأثيرها في نهاية الخمسينات، فإنها كانت تحتفظ بقُدُرات مؤثرة في الواقع الفعلي بحكم علاقة السلطة الفاعلة في هذا الاستعمار بالمخابرات الأمريكية وأجنحتها الإمبريالية، بل وبالجنود ذوي الميول الغربية في الجيش البلجيكي نفسه.. وهكذا تعرض الزعيم باتريس لومومبا للاعتقال في ١٩٥٩ ولم يُفرج عنه إلا لحضور مؤتمر المائدة المُستديرة في بروكسل، وذلك على نحو ما جرى مع سعد زغلول وإنذاره في مصر في ثورة ١٩١٩، بل إن الزعيم باتريس لومومبا نُقل من السجن إلى مؤتمر بروكسل بالطائرة مباشرة.

كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه المؤتمرات الاستقلالية هي تقرير إجراء الانتخابات النيابية، ومن الطريف ان عدد الأحزاب الكونغولية التي شاركت في هذه الانتخابات كان أكثر من مائة حزب، لكن حزب الزعيم باتريس لومومبا المُسمى بالحركة الوطنية فاز بأكثر من ستين في المائة من الأصوات، وبهذا تكرّست زعامة باتريس لومومبا على غير رغبة من البلجيكيين وحلفائهم الغربيين وبخاصة الأمريكان.. لكن الضغط الشعبي وضرورة حفظ ماء الوجه الغربي دفعت بالأمور إلى الصواب الطبيعي، وهو أن يتولى الزعيم باتريس لومومبا رئاسة الحكومة في ٢١ يونيو ١٩٦٠، وقد أتم تشكيل الحكومة في يومين أي في ٢٣ يونيو.

أزمة حفل إعلان الاستقلال

جاء الملك بودوان ملك بلجيكا ورئيس وزارئه لحضور حفل إعلان الاستقلال، الذي دُعي إليه عدد من الزعماء الأفارقة، وهنا ظهرت الصورة القُصوى من حماس الزعماء، وهي صورة نادرة في العلاقات الدولية، لكن الكونجو دفعت ثمناً غالياً لها، ذلك أن رئيس وزراء بلجيكا تقدّم لإلقاء كلمته، لكن رئيس وزراء الكونغو

المُنتخب الذي هو الزعيم باتريس لومومبا منعه من أن يتكلّم لأن اسمه لم يكن وارداً في قائمة المتحدثين في الحفل، وأراد ملك بلجيكا أن يستبقي نفوذه فقام وألقى كلمة قال فيها إن بلجيكا ضحّت بشبابها وأموالها من أجل تعليم الشعب الكونغولي ورفع مُستواه الاقتصادي وحذّر أبناء الكونغو من السلوك المتسرع الذي قد يؤدي إلى تدمير المدنية الأوربية التي نقلها البلجيك إلى ذلك الوطن، وكان لكلمة ملك بلجيكا وقع سيء على الكونغوليين، حتى إن الزعيم باتريس لومومبا قاطع أفكار الملك البلجيكي بخطابه الذي عرف فيما بعد باسم خطاب «الدموع والدم والنار»، والذي قال فيه:

أيها المناضلون.. أنتم اليوم مُنتصرون: «أتذكرون السخرية والعبودية التي فرضها علينا المُستعمر؟ أتذكرون إهانتنا طويلاً، لأننا في نظرهم زنوج؟ لقد استغلوا أرضنا ونهبوا ثرواتنا.. لقد تعرضنا للرصاص والسجون وذلك لمُجرّد أننا نسعى للحفاظ على كرامتنا كبشر».

وهكذا تحوّل احتفال إعلان الاستقلال ليكون بدءاً لمرحلة جديدة من المتاعب والظلم للكونغوليين، فقد قرّر الملك البلجيكي ورئيس وزارته في تلك اللحظة أنه وإن كانت الكونجو قد استقلت، فإن الزعيم باتريس لومومبا لا ينبغي أن يبقى على قيد الحياة.

تطبيق الكتالوج الأمريكي

وهكذا بدأت الخطوات المعروفة في الكتالوج الأمريكي، بعد أن ظهر أن بلجيكا تريد الانتقام، لكنها عاجزة عنه في ظلّ الظروف الدولية الجديدة، وهكذا جاءت الخطة الأمريكية التي لم يكن أحد في ذلك الوقت يعرف أبعادها على النحو الذي نعرفه الآن بكلّ شفافية ووضوح، وفي غضون أيام قليلة بدأت النظائر المعروفة للاضطرابات العمالية، وحركة تمرّد، وجبهة الإنقاذ، وتلك الآليات المقيتة التي تمّ استدعاؤها بسهولة.، كما بدأ الإعلان عن تمرّد عسكري وأن عسكر الكونجو كانوا يأنفون أن يرأسهم عسكري غربي، أو غير وطني، كذلك بدا الحديث عن انفصال إقليم كانتانا الذي هو مصدر ثروة الكونغو.

وهكذا فإنه إذا كان الرئيس محمد مرسي قد استطاع أن يُلاعب الدولة العميقة عاماً كاملاً، فإن الرئيس الزعيم باتريس لومومبا فقد كلّ شيء في ثلاثة أسابيع فقط، مع أن هذه الأسابيع الثلاثة كانت كفيلة بتتويج زعامته للأبد، وقد تمّت المسرحية بقرار من رئيس الجمهورية صاحب المنصب الشرفي الذي أصدر قراره بعزل الزعيم باتريس لومومبا وتجريده من صلاحياته، وإقالة الحكومة، وعندما حاول البرلمان أن يتصدّى لرئيس الجمهورية فإن القوى الناعمة كانت قادرة على أن تُحطّم كل الشرعيات والمشروعيات من خلال تعاونها مع رئيس هيئة اركان الجيش موبوتو الذي صار (كالعادة فيما عرفناه بعد ذلك من الانقلابات العسكرية الجاهزة) رئيساً للكونجو، مع انه كان صنيعة من صنائع الزعيم الوطني الزعيم باتريس لومومبا.

وبدأت المواجهة بين الشعب والجيش وطالت هذه المواجهة، ومع أن الشعب كان يُسيطر على مُعظم البلاد، فإن موبوتو بفضل الدعم العسكري الغربي، الذي كان جاهزاً ومُتربّصاً، تمكّن من سحق المقاومة الشعبية وسحق الشرعية معها، وتقديم نفسه على أنه محارب للشيوعية، وهو المصطلح المرادف لمصطلح مكافحة الإرهاب في عصرنا الذي نعيشه.

أول الانقلابات العسكرية في إفريقيا الداخلية

كان الانقلاب العسكري لموبوتو في ١٩٦٥ هو أول الانقلابات العسكرية في إفريقيا الداخلية، باستثناء ما نعرفه مما حدث في البلاد العربية في شمال إفريقيا.

أما قصة اغتيال الزعيم باتريس لومومبا التي لم يبخل الأمريكان ولا الغرب بتسريب كثير من تفصيلاتها من باب تحطيم الروح المعنوية للأفارقة الوطنيين، فقصة مأساوية بكلّ الأبعاد، ومن العجيب أن الزعيم باتريس لومومبا والوطنيين الكونغوليتين وقفوا في أصعب اللحظات دون أية مساعدة ذات قيمة من أيِّ من القوى ذات التأثير في عالم الستينات، وهكذا فقد الزعيم باتريس لومومبا حياته في يناير ١٩٦١ بعد سنة واحدة من استقلال بلاده وتولية الحكم لمدة ٣ أسابيع فقط.

حقيقة التدخل المصري في الكونغو

أما التدخل المصري في الكونغو، فقد كان باختصار شديد على مُستويين: المستوى

اللاحق هو المشاركة بالوجود العسكري من خلال السفارة المصرية في الكونغو حين تطورت الأحداث واقتضت وجود قائد عسكري في البعثة الدبلوماسية وكان هو العميد (المشير فيما بعد) احمد إسماعيل. وفي السفارة المصرية فقد كان السفير هو الدكتور محمد مراد غالب (وزير الخارجية في ١٩٧٢) الذي عمل قبل ذلك وبعد ذلك في موسكو. كما كان مستشار السفارة هو محمد إبراهيم كامل (وزير الخارجية فيما بعد في ديسمبر ١٩٧٧). وكان قد سبق هذا مستوى آخر هو المشاركة في قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام بإحدى الفرق، وكان الذي اختير لقيادة هذه الفرقة هو العقيد (الفريق فيما بعد) سعد الشاذلي.

أما البطل الحقيقي الذي يفوق دوره المنفرد دور كل هؤلاء، فهو المستشار عبد العزيز إسحاق، وهو الرجل الذي استطاع تهريب عائلة الزعيم باتريس لومومبا من قلب الكونجو إلى مصر، وهو أقصى انتصار حقّقته مصر في أزمة الكونغو، وقد تمكّن من اصطحابهم عبر الجزائر (ترانزيت) ثم برشلونة (لمدة يوم) ثم سويسرا (لمدة يومين) ثم إلى القاهرة وجاء أبناء الزعيم باتريس لومومبا الثلاثة فرانسوا باتريس (الصغير) وجوليانا. وبعد عام جاءت الزوجة ومعها ولدها الرابع رولا. وفيما بعد فقد تولّى هؤلاء الأبناء مناصب سياسية في بلادهم.

وقد روى الفريق الشاذلي أن موقع الكتيبة المصرية في قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام تحدد في موقع يبعد عن العاصمة ألف كيلو متر حتى لا تكون قريبة من الأحداث، ومع هذا فإن مجرّد وجود الكتيبة المصرية في الكونغو قد خدم العملية الوحيدة الناجحة التي قامت بها مصر، وهي تهريب أولاد الزعيم باتريس لومومبا. كذلك فإن وجود هذه الكتيبة على الحدود مع إفريقيا الاستوائية (التي كانت تخضع للاستعمار الفرنسي) كان يُمثل إزعاجاً معنوياً للفرنسيين الذين يضطرّون للعبور من معبر تُسيطرُ عليه قوات مصرية تتبع الأمم المتحدة، لكنها مصرية!!

موبوتو والانسحاق الهيكلي

أما موبوتو (١٩٣٠ ـ ١٩٩٧) فأصبح على يد محمد حسنين هيكل من الزعماء الذين ينقل عنهم أقوالهم وحكمهم ويُقدّمهم للرأي العام العربي على أنهم حلفاء الرئيس

عبد الناصر، وذلك على الرغم من دوره المقيت في القضاء على زعامة وطنية وروح وطنية كانت كفيلة بإعادة الأمل في إفريقيا، بدلا من حالها الذي لا يخفى على أحد. ومع أن موبوتو لم يكن يملك الطائرات الكفيلة بمُساعدته في غدره بالزعيم باتريس لومومبا فإن الأمريكيين سرعان ما زوّدوه بالطائرات وساعدوه أيضا بالإمكانات اللوجستية التي مكّنت من القبض على الزعيم الوطني باتريس لومومبا. وقد ظلّ موبوتو يحكم كرئيس منذ ١٩٦٥ منذ انقلابه الثاني وحتى وفاته في ١٩٩٧، أي أنه حكم كرئيس ٣٢ عاماً. وهو الذي غيّر اسم الدولة إلى زائير. وإن كان موبوتو قد قام بانقلابه الأول في ١٩٦٠ عندما خان رئيسه الزعيم باتريس لومومبا وأصبح بمثابة الرجل القوي في الدولة وهو رئيس للأركان منذ ١٩٦٠.

دولتان تحملان اسم الكونغو

بقي أن نفرق بين الدولتين اللتين تحملان اسم الكونغو، فالكبرى هي الكونغو الديموقراطية التي كانت قد سُمّيت باسم زائير على يد موبوتو فيما بين ١٩٧١ وحتى وفاته ١٩٩٧، ثم عادت إلى اسمها الأول: الكونغو الديموقراطية، وكالعادة في إفريقيا على سبيل الاختصار والحسم المعلوماتي التقريبي، فإنها تُنسب على عاصمتها فتُسمّى "الكونغو كينشاسا".. هي الآن بعد أن تم تقسيم مصر والسودان ثم بعد أن تقسيم السودان نفسه هي ثاني أكبر البلاد الإفريقية مساحة بعد الجزائر، ورابع دول إفريقيا من حيث عدد السكان بعد مصر ونيجيريا وأثيوبيا، ومتوسط الناتج المحلي الاسمي للفرد ٤٦٢ دولارا في العام.

أما الدولة الأخرى فهي جمهورية الكونغو (بدون صفات)، وهي التي تنسب إلى عاصمتها برازافيل، وكانت تسمّى بمُستعمرة الكونغو الفرنسية، وبالكونغو الوسطى، وتقع إلى الغرب من شقيقتها الكبرى الكونغو الديموقراطية، وهي دولة صغيرة يقترب سكانها من أربعة ملايين، وإن كانت كبيرة المساحة بالنسبة لعدد سكانها، ومن الطريف انها نالت استقلالها في ١٩٥٨ أي قبل الكونغو الكبيرة بعامين، لكنها لم تصبح معروفة باسم جمهورية الكونغو إلا في ١٩٦٠، ويبلغ متوسط الناتج المحلي الأسمى للفرد ١٦٥٤ دولارا في العام، أي قرابة أربعة أضعاف أو ٣٦٠ ٪ من متوسط الناتج المحلي الأسمى للفرد في الكونغو الكبيرة.

* * *

١٧
الرئيس سنجور
الذي حاول الغرب تنصيبه حكيما للأفارقة

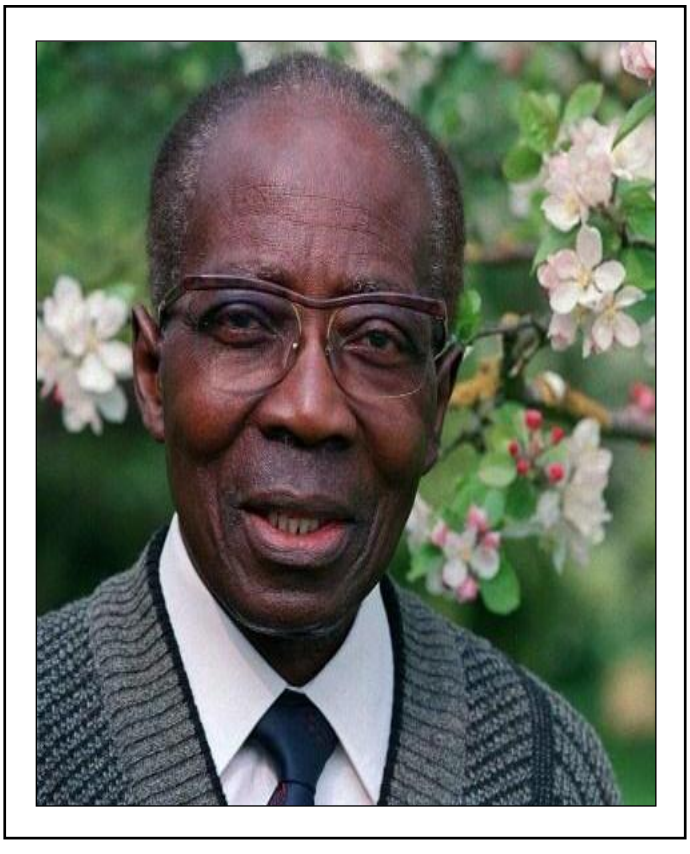

كان الرئيس ليوبولد الرئيس سنجور (١٩٠٦-٢٠٠١) فيما بين الرؤساء الأفارقة في العصر الحديث أكثر السياسيين الذين سكبت عليهم الصحافة الأوروبية الأضواء بدرجة مُبهرة فلفتت إليهم الأنظار في وقت من الأوقات دون أن يستمر هذا الأثر لأكثر من سنوات معدودة، وذلك على الرغم من كل العوامل التي كانت كفيلة بتقديم نجم حقيقي يستمر أثره في الحياة، لكن الغياب الواضح لعنصر الأصالة كان كفيلا بأن يُقوض كل الجهود الذكية في صناعة نجم وطني بمقاييس غربية.

ومع أن العالم الإفريقي منح موافقته على الرئيس سنجور وأكرم وفادته في مؤتمرات القمة باعتباره رئيس دولة ذكية ومهمة، فإن الرئيس سنجور نفسه لم يكن قادرا على البقاء في إفريقيا بعد أن فشلت أُطروحاته وخُططه.

كان الرئيس سنجور المولود (١٩٠٦) مثقفا وشاعرا لا شك في هذا، لكن مبلغ ثقافته وشاعريته كان يقف عند حدود الارتواء من المنبع الغربي واجترار أفكاره مع وضعها في قالب غربي أيضا لكن اللافتة فقط إفريقية.. هكذا نستطيع أن ننظر إلى أعمال الرئيس سنجور الشعرية ومنها "قربان أسود" (١٩٤٨) "إثيوبيات" (١٩٥٦) "ليليات" (١٩٦١) "رثاء الصابيات" (١٩٦٩).

أصول إسلامية ومحلية

كان الرئيس ليوبولد سنجور من أصول اختلطت فيها سلالات المسلمين الذين أُجبروا على التنصر بسلالات محلية أخرى، وكان واحدا من الفتيان الذين احتضنهم الاستعمار الفرنسي في مدارسه، من خلال المنح الدراسية التي تؤمّن الإقامة والدراسة في المدارس الداخلية التي توفر كل شيء حتى ينعزل الطالب عن الحياة العادية في خارج المدرسة، ومع أن المدرسة كانت ممولة من مؤسسات دينية فإن هذا لم يمنعها، كالعادة، من أن تتركه يبدو علمانيا فقد كانت صلته بالأدب الفرنسي واللغة الفرنسية قد توثقت حتى أصبحت بمثابة هويته الجديدة التي مكنته في نهاية الأمر من الوصول إلى عضوية الأكاديمية الفرنسية، بعد أن وصل إلى رئاسة السنغال (١٩٦٠) واضطرته الظروف إلى التخلي عنها (١٩٨٠).

كتالوج الغدر بالمسلمين

وصل الرئيس سنجور إلى رئاسة السنغال عند استقلالها (١٩٦٠) بالاتفاق مع المسلمين، على أن يكون رئيسا ويختص بالشئون الخارجية وأن يكون مامادو ديا رئيسا للوزراء ومسئولا عن التنمية والداخل، لكن الإعلام الفرنسي سلط الضوء كله على الرئيس سنجور فقط بحيث لا يظهر ماما دو وبحيث يمكن إزاحته في أقرب فرصة باتهامه في أي مؤامرة، ولم يتأخر مثل هذا الترتيب المعتاد، ففي ديسمبر ١٩٦٢ اعتقل مامادو ديا بتهمة التحريض على الانقلاب، وبقي في السجن ١٢ عاما وانفرد الرئيس سنجور بالحكم، وأظهر نفسه في صورة الديموقراطي وهي صورة لم يكن حظه منها كبيرا، لكن الحكم لم يستقر له فقد تعرض لمحاولة للاغتيال في مارس ١٩٦٧، وحُكم على مُنفذها بالإعدام، وهكذا بدأ الرئيس سنجور نفسه يُدرك استحالة استقرار الأمور له بغير شكل ديموقراطي مقترن بإصرار واضطرار غير خفيين، هما إصراره على بقاء نظام الحزب الواحد واضطراره إلى سحق الاحتجاجات الطُلابية.

ظل الرئيس سنجور ينظر إلى السنغال على أنها جزء من فرنسا، بل إنه كان من الداعين إلى وجود كومنولث فرنسي على غرار الكومنولث البريطاني، بل إنه كان رمزا من الرموز المُبكرة للفرنكوفونية، ومن الحق أن نُشير إلى أن مثل هذه الدعوة لم تكن شرا محضا فقد احتفظت للسنغاليين بوضع مميز مع فرنسا، على حين أن دعاة القومية العربية من العسكريين النوابغ قد أفقدوا شعوبهم كل ارتباط شكلي يُحقق أية فائدة دنيوية، بعدما أفقدوهم الإحساس بكل انتماء، ومن ثم جعلوهم في صورة أعداء الإنسانية، وهو ما لم يفعله الرئيس سنجور على أية حال ولا بأية درجة، لأنه كان في البداية والنهاية مثقفا لا يستند إلى الإيمان بالقوة فحسب.

التنحي الاختياري

يُحسب للرئيس سنجور أيضا أنه لم يُكابر، فقد أعاد تقييم الموقف وقبل أن يتنازل بإرادته عن سلطته في رئاسة الجمهورية ـ وقبل أن يخلفه نائبه عبده ضيوف في انتقال سلمي جنّب السنغال كثيرا من العنف القاتل والضياع الذي لا مبرر له. وإذا

كان الرئيس سنجور قد فشل في أن يُقدم أحد النماذج المضيئة للحكم الديموقراطي أو للأصالة الإفريقية الحقيقية أو للتنمية الذكية، فإنه بلا شك لم يتورط في الاندفاع إلى قتل شعبه أو إلى إشعال حرب أهلية.. وربما كان السبب الجوهري في انتهاجه هذا السلوك الحكيم أنه لم يكن عسكري النوى ولا الهوى.

وطيلة حكم الرئيس سنجور كانت الكلمة للمستشارين السياسيين الفرنسيين، وكان أمر تقييم العملة السنغالية بيد الفرنسيين، كما بقي التعليم باللغة الفرنسية، وهكذا يُمكن النظر إلى حكمه على أنه امتداد للاستعمار تحت لافتة وطنية أو كأنه حالة مصر في عهد الخديو توفيق على سبيل المثال.

المأثورات في السياسة والثقافة

ومع هذا كله، فإن الرئيس سنجور بشاعريته وأسلوبه والمنصة التي أُتيحت له كان قادرا على أن يقدم كثيرا من المأثورات المهمة في السياسة والثقافة فهو الذي قال على سبيل المثال إن الأبيض لا يستطيع أن يكون أسود إطلاقا لأن السواد هو الحكمة والجمال.

كان الرئيس سنجور حاضرا بالطبع في فعاليات اليونسكو والفرنكوفونية والتعاون الفرنسي الأفريقي، وهذه القائمة الطويلة من الكيانات والأسفار التي تستهدف الإبقاء على الصلة الاستعمارية دون أن تعنى بالارتفاع بالمستوى الأفريقي إلى الندية القادرة على إفادة فرنسا نفسها، ومع أن نموذج الرئيس سنجور نفسه لم يعد متاحا في إفريقيا بسبب لهاث الحياة وسرعة تدافع البشر فإن فرنسا الرسمية لا تزال تُمارس سياستها في استنساخ نموذجه حتى ولو بطريقة مظهرية.

في الأكاديمية الفرنسية

عاش الرئيس سنجور ما بقي من حياته (١٩٨٠ ـ ٢٠٠١) في منطقة نورماندي في فرنسا، متمتعا بوضع أدبي متميز، حيث أصبح أول عضو غير فرنسي في الأكاديمية الفرنسية (مجمع الخالدين) وقد شغل الكرسي السادس عشر الذي انتخب لشغله ١٩٨٣ وحتى توفي كما يقضي بهذا قانون المجمع، ومن الطريف أن الأكاديميين الفرنسيين انتخبوا الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكار ديستان ليكون خلفا له

منذ ٢٠٠٣، أما سلفه في هذا المقعد (في الفترة من ١٩٥٣ حتى١٩٨١) فقد كان شبه سياسي وهو الكاتب والمؤرخ أنتوان ميربوا.

لما توفي الرئيس سنجور في ٢٩ ديسمبر ٢٠٠١ حضر جنازته رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية ووزير الدولة الفرنسي للشئون الخارجية لكن الرئيس الفرنسي جاك شيراك ورئيس وزارته جوسبان لم يحضرا الجنازة.

جامعة سنجور

في مصر أنجز تخليد رسمي لاسم الرئيس سنجور بإطلاقه على جامعة فرنسية خاصة بالتنمية أقيمت في الإسكندرية بشراكة مع مصر، بيد أن الخلافات البيروقراطية المعتادة بين ممثلي الدولتين لم تمكن الجامعة من أن تخطو أي خطوة واسعة في سبيل نقل الثقافة أو الفكر وبقي دورها بيروقراطيا روتينيا متواضعا إلى أبعد الحدود.

* * *

١٨
الرئيس الغاني نكروما
الذي خذلته مصر بقدر ما أحبها

من بين الزعماء الأفارقة الذين لمعت أسماؤهم في حقبة الحرب الباردة بل منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية يأتي اسم الرئيس الغاني نكروما في المُقدمة، وبدون أن ندخل في مفاضلة سريعة بينه وبين غيره من الزعماء الأفارقة المعاصرين له فإننا نستطيع أن نذكر أن مكانته وصلت إلى اختياره رئيسا لمنظمة الوحدة الإفريقية رغم أن غانا لم تكن مقر هذه المنظمة، ولم تكن الأعلى صوتا بين الدول المكونة لها كما أنها لم تكن الأعتى ولا الأغنى ولا الأكبر مساحة ولا الأكثر سكانا.. ومع هذا كانت للرئيس نكروما هذه المكانة المتقدمة، لكن هذا لم يشفع له في مُجريات السياسة الدولية وحكوماتها الخفية بل ربما كان هذا مدعاة لإيذائه والوقوف ضده والقضاء عليه.

لماذا وقف الغرب ضده

كان السبب الثاني لوقوف الغرب والعرب معا ضد الرئيس نكروما هو أنه كان أكثر الزعماء الأفارقة فهما وثقافة وتعلما، وقد انعكس هذا على فهمه وإدراكه فأصبح أكثرهم فهما وتفهما، ولهذا فإنه حين وقع الانقلاب عليه أرسل لعبد الناصر بصريح العبارة أن ينتبه لأن الدور قادم عليه سريعا، ولم تكن هذه الرسالة علنية تماما ولا سرية تماما لكنها جمعت بين العلانية والسرية لأنها كانت حقيقة واضحة، وكان تاريخ هذه الرسالة هو ١٩٦٦ ومن المؤسف أن الرئيس عبد الناصر لم ينتبه بما فيه الكفاية لما تضمنته رسالة الرئيس نكروما فكانت مأساة ١٩٦٧ بكل قسوتها وضجيجها.

كان الرئيس نكروما نموذجا للزعيم الوطني المدني المتعلم الذي يقود طموحات شعبه إلى الأفضل عبر تفعيل الحياة الحزبية وصندوق الانتخابات والعملية الديموقراطية بالتزامن مع سعيه للخلاص من المستعمر وقسوته على الأرض والشعب، كان الرئيس نكروما رغم ضُعف عقيدته الدينية، ورغم قلة محصوله من العمل الشعبي قادرا على أن يحشُد الجماهير ويقود حركتها في التعامل مع الغرب من أجل أن يُحقق الآمال التقليدية في الاستقلال وما بعد الاستقلال.

الرئيس المتعلم

بدأ الرئيس نكروما نشاطه السياسي وهو ناضج، فمع أنه ولد ١٩٠٩ فقد شغلته حياته المهنية في أول الشباب: كان قد تخرج في دار المعلمين في أكرا وعمل بالتدريس ثم نال فرصتين متتاليتين للدراسة في الولايات المتحدة ١٩٣٥ ثم في بريطانيا ١٩٤٥

وأصبح متزودا تماما بالفهم الغربي للاقتصاد وإدارة شئونه، كما أصبح قادرا على مواجهة الجماهير ببرنامج محدد.

في ١٩٤٧ كانت أولى خطوات الرئيس نكروما في نشاطه السياسي المُعلن أو الصريح ووصل إلى منصب أمين عام مؤتمر شاطئ الذهب أو ساحل الذهب (وهكذا كان اسم غانا في مناغمة مع اسم جارتها الإفريقية الواقعة إلى الغرب منها: ساحل العاج أو كوت دي إيفوار) وكان من الطبيعي أن يبدأ الرئيس نكروما رحلة معروفة مع الاعتقال وفُقدان الحرية ثم مع إعادة بناء الكيان السياسي الذي يعمل من خلاله.

وهكذا اعتُقل الرئيس نكروما في ١٩٤٨ بينما يزعم العالم أنه قدم احترامه لحق تقرير المصير، ويزعم أن الأمم المتحدة قادرة على الحفاظ للشعوب على حقوقها في الاستقلال واسترداد حكم نفسها بنفسها بعيدا عن سطوة الاستعمار.

حزب المؤتمر الشعبي

في ١٩٤٩ أسس الرئيس نكروما الكيان الثاني الذي عمل من خلاله فأصبح المؤتمر حزبا باسم حزب المؤتمر الشعبي، وكان من الطبيعي أن يُعاد اعتقاله في ١٩٥٠ ومع هذا فإن الوعي السياسي للجماهير الغانية مكّنها من أن تدعم كفاح الرئيس نكروما بأن تنتخبه وهو في السجن، ومن ثم فقد أصبح على المستعمر أن يُفرج عنه بل وأن يتركه يتولى رئاسة الوزارة في مارس ١٩٥٢ أي قبل أن تقوم ثورة يوليو بأربعة شهور.

هكذا كانت زعامة الرئيس نكروما قد تحققت وتبلورت في صورة استلام الحكم منذ ما قبل ثورة ١٩٥٢ ومع هذا فإن أدبيات السياسة المصرية تتحدث عن الرئيس نكروما وكأنه صناعة ناصرية، وأنه لم يوجد إلا بفضل لمعان عبد الناصر وقيادته للتحرر الوطني في إفريقيا، وهو نوع من الشوفونية غير المستحبة في صياغة التاريخ بطريقة كانت كفيلة بكراهية الأفارقة (والعرب من قبلهم) لمصر ولطريقتها في الحديث عن الحلفاء.

أن اسم غانا كان يُطلق على إمبراطورية إسلامية

نجح الرئيس نكروما في أن يخوض معركة مواتية مع البريطانيين من أجل إعلان استقلال غانا، وكانت بريطانيا في ذلك الوقت تتخلص من المستعمرات بطريقة تحفظ لها حقوقا مُستقبلية تمثلت على سبيل المثال في بقاء اللغة الإنجليزية كلغة رسمية

لغانا.. ومن الطريف أن اسم غانا كان يُطلق على إمبراطورية إسلامية تقع إلى الشمال من أرض غانا الحالية ولم تكن هذه الإمبراطورية تُسيطر على هذه الأرض التي سماها الأوربيون على طريقتهم بساحل الذهب. لكن ثقافة الرئيس نكروما وطموحه إلى بلورة التاريخ الموحى دفعتاه إلى اختيار هذا الاسم وإعلان استقلال ساحل الذهب بهذا الاسم الغاني الذي يُذكر المستعمرين دوما بالاسم الشبيه وهو غينيا التي لا تشترك مع غانا في أي حد من الحدود.

العمق الافريقي

كان الرئيس نكروما ميالا إلى أن يوجد لغانا ومثيلاتها عُمقا إفريقيا يُساعدها على تجاوز مشكلات الدول حديثة الاستقلال، وكان بحكم دراسته في أمريكا وبريطانيا قادرا على أن يستشرف رغبة الاستعمار القديم في إعادة الدخول إلى الحكم المحلي من خلال الانقلابات العسكرية، وظن الرئيس نكروما وهو معذور أن مصر بوزنها الإقليمي وجهاز إعلامها الضخم ومؤسساتها الثقافية قادرة على أن تحقق له ولغانا هذا العمق الكفيل بتجاوز المرحلة الحرجة من التاريخ الحديث، وهكذا أقبل الرئيس نكروما على مصر بإخلاص ووقف معها على الدوام، بل إنه على عكس ما هو سائد في جيله من الارتباط بالغربيين في الزواج والمصاهرة آثر أن يتزوج من مصر من حيث المبدأ وأن يؤكد بهذا السلوك على فهمه لمستقبل غانا ولمستقبله هو في الحكم.

وهكذا تزوج الرئيس نكروما من السيدة فتحية التي عُرفت بعد هذا باسم فتحية نكروما، وهي أم أولاده الذين يعيشون الآن في القاهرة، ومنهم ابنه جمال صحفي لامع، لكن الصحافة المصرية على عادتها قدمت هذا الزواج لا بطريقة المُصاهرة بين الشعوب ولا بطريقة الاختيار الذكي، وإنما قدمته في صورة فجة على أنه نوع من ولاية الأمر، وكأن عبد الناصر أصبح في تصوير صحافته بمثابة ولي أمر الرئيس نكروما الذي اختار لابنه أن يتزوج من مصر.. ولا تزال هذه الصورة شائعة في ذاكرة المصريين وعقليتهم على الرغم من أن الرئيس نكروما كان أكبر من عبد الناصر بعقد كامل من الزمن (فقد ولد في ١٩٠٩) وعلى الرغم من أن الرئيس نكروما وصل إلى زعامة بلاده بالانتخاب قبل أن تقوم ثورة ١٩٥٢.

في كل الأحول فقد واصل الرئيس نكروما سياسته الاستقلالية وأخلص لقضايا وطنه ولقضايا مصر والعروبة، بل كان من أشد المدافعين عن القضية الفلسطينية

وقضايا التحرر العربي. ولم يكن هذا الموقف مريحا للأمريكيين وبخاصة أن الرئيس نكروما كان مُقبلا على النجاح في معارك السياسة الحقيقية، وكان قادرا على التفاوض والصياغات الكفيلة بجمع كلمة الفرقاء من الدول المستقلة حديثا، كما أنه لم يكن من هواة الحروب الأهلية ولا من الذين يستعذبون حكم الشعب بالحديد والنار اللذين يملكهما العسكر.

الانشغال عن دعم تجربة نكروما

ومن العجيب أن مصر الرسمية بدلا من أن تحافظ على زعامة الرئيس نكروما وأمثاله بالدعم التقني واللوجيستي الذي كانت تملكه فإنها كانت مشغولة عنه بالمغامرات الناصرية المعروفة، وهكذا امتد الأمريكان بسياسة الانقلابات العسكرية إلى غانا التي استمرت تعاني وطأتها وقسوتها منذ ١٩٦٦ وحتى ١٩٩٢ بلا توقف. أما الرئيس نكروما الذي قام الانقلاب عليه بينما هو في خارج غانا متوجها إلى فيتنام في فبراير ١٩٦٦ فقد حاول استعادة زمام الأمور فلجأ إلى غينيا حيث الزعيم العظيم أحمد سيكوتوري لكنه لم يجد العون الكافي من مصر وغيرها من الدائرين في فلكها فقد كان التوجه الناصري موافقا دون إعلان على التوجه الأمريكي بمنح السيطرة للعسكريين في كل مكان شهد حركة وطنية.

أسرة الرئيس نكروما

ومع هذا فإن أسرة الرئيس نكروما جاءت إلى مصر، بينما بقي هو في غينيا حتى أصابه المرض فعولج في رومانيا وتوفي في بوخارست (إبريل ١٩٧٢) وعاد جثمانه إلى غينيا حيث دفن فيها، لكن حكومة غانا استعادت الجثمان فيما بعد وشيعته في جنازة رسمية.

بقي من الرئيس نكروما ابنه الصحفي اللامع جمال وابنتاه كما بقي من كتبه، سيرته الذاتية بعنوان "غانا"، وثلاثة كتب مهمة: "أتكلم عن الحرية" "لا يجب أن تتحد أفريقيا"، "الاستعمار الجديد.

* * *

المحتويات

هذا الكتاب..... ٥
الباب الأول: السودان..... ٧
١- لولا الانفصال لكان الرئيس جعفر نميري رئيسا لمصر..... ٧
٢- الزعيم المحجوب الذي أعاد ترميم صورة الرئيس عبد الناصر فكوفئ بالنفي والنكران..... ١٧
٣- إسماعيل الأزهري الزعيم السوداني الذي ذبحه الرئيس عبد الناصر ثلاث مرات..... ٣٢
٤- الفريق إبراهيم عبود الرئيس الذي لم يعتقد في ألوهية شخصه..... ٣٩
٥- الرئيس البشير وثلاثون عاماً من مجاملة أمريكا بلا مقابل..... ٤٦
الباب الثاني: الجزائر..... ٥١
٦- هواري بومدين البحث عن الأسطورة في زمن الواقعية..... ٥١
٧- الفضيل الورتلاني جيفارا الإسلام السياسي..... ٦١
٨- المجاهد الفذ الدكتور عباس مدني أول زعيم حقيقي في زمن العولمة.. ٦٦
٩- خمسة وعشرون سببا تجعلني أدعو بالرحمة للقايد صالح رئيس الأركان الجزائري..... ٧١
الباب الثالث: تونس..... ٧٥
١٠- الرئيس الحبيب بورقيبة ثائر من القرن السابع عشر في القرن العشرين..... ٧٥
١١- عشرون سببا تجعلني أدعو الله بالرحمة للرئيس التونسي السبسي... ٨٨
الباب الرابع: شرق إفريقيا..... ٩٢
١٢- هيلاسيلاسي الإمبراطور الذي دفنوه تحت حمام الديكتاتور ٩٢
١٣- الديكتاتور الحبشي المذعور من الإعدام منجستو المؤمن بالمانفستو. ١١١
١٤- نيريري الذي ابتلع دولة عربية مسلمة لكنه ازداد فقرا ١١٦
الباب الخامس: غرب إفريقيا ووسطها ١٢٩
١٥- الرئيس أحمد سيكوتوري أكثر الرؤساء الأفارقة اتزانا ١٢٦
١٦- لومومبا الزعيم الذي آمن بصوت مصر العالى ففقدت الكونجو مُستقبلها..... ١٣٤
١٧- الرئيس سنجور الذي حاول الغرب تنصيبه حكيما للأفارقة..... ١٤٢
١٨- الرئيس الغاني نكروما الذي خذلته مصر بقدر ما أحبها ١٤٧

الدكتور محمد الجوادي

نجتهد في هذا الكتاب في محاولات باحثة بشغف عن الحق والصواب من أجل أن نرسم بأكبر قدر ممكن من الجمال الفني و المعرفي صورة لأبرز السمات الشخصية والعقلية و الاجتماعية في عدد من الشخصيات السياسية التي قدر لها أن تلعب أدوارا مهمة في تاريخ إفريقيا الحبيبة إلى قلوبنا جميعا والتي لا نكف عن أن نتمنى لها ما هي أهل له من الاستقرار والازدهار و الارتقاء . لا نحيط بكل أبعاد الصورة ، لكننا واثقون من أننا لم نعمل شيئا معروفا من أجل الحقيقة ، ونعرف أن كثيرا من الزيف قد تراكم فوق صورة الشخصيات التي تناولناها لكننا اجتهدنا في الوصول إلى الجوهر بأقصى ما يمكن للاجتهاد من سعي و درس ومراجعة للنفس و سؤال لأهل العلم ولأهل الحقيقة أيضا . نعرف أن إفريقيا في كلمة واحدة تمثل " المطمع " لكننا نعرف أيضا أن الإفريقي الحقيقي كنز يفوق كل الكنوز الأخرى ، ولهذا فإن إفريقيا التي يمكن وصفها بأنها مسلوبة العواد هي نفسها إفريقيا التي يمكن الفخر بأنها غير مستلبة الروح ، فلا تزال روح العزة والإباء الإفريقي ترفرف فوق رأس كل إفريقي أصيل اعتز بذاته والتصر على ذاته وجاهد من أجل ما يبقي الجهاد من أجله غير ملخدع ولا ملخلع . وهذا الكتاب شأنه شأن معظم كتاباتي لا يفعل أكثر من أن يسكب بعض الضوء المخلص على الأحداث التي توالت ، وأن يتولاها بالتحليل والتأصيل والمشابكة والمقارنة والمشكلة والمشاكلة والترتيب والتبويب والمدارسة والمراجعة والنقد.

دار الروضة